أ. د. وهبة الزحيلي

التفسير الوسيط

الجزء الأول

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان
دار الفكر
دمشق - سورية

الرقم الاصطلاحي: ١ - ١٤٠٠,٠١١
الرقم الدولي: ISBN: 1-57547-818-8
الرقم الموضوعي: ٢٢٠
الموضوع: القرآن وعلومه
العنوان: التفسير الوسيط
التأليف: أ. د. وهبة الزحيلي
الصف التصويري: دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي: مطابع المستقبل-بيروت
التجليد الفني: مؤسسة البساط-بيروت
عدد الصفحات: ج١ ٩٣٦ ص
قياس الصفحة: ١٧×٢٥ سم
عدد النسخ: ٣٠٠٠ نسخة

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من
دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق-سورية
فاكس: ٢٢٣٩٧١٦
هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ - ٢٢١١١٦٦

http://www.fikr.com/
e-mail: info@fikr.com

الطبعة الأولى
محرم ١٤٢٢هـ
نيسان (أبريل) ٢٠٠١م

تفسير سورة صٓ

الرد على عقائد المشركين

أوضحت سورة (صٓ) أصول العقيدة الإسلامية: وهي التوحيد والنبوة والبعث، من خلال مناقشة المشركين في عقائدهم المناقضة لتلك الأصول، وإيراد نماذج من قصص الأنبياء السابقين للعظة والعبرة. ومن أخطر عقائد المشركين القول بتعدد الآلهة، بدليل قولهم في مطلع سورة (صٓ) ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا..﴾

أخرج الإمام أحمد والترمذي والنسائي والحاكم عن ابن عباس قال: مرض أبو طالب، فجاءته قريش، وجاءه النبي ﷺ، فشكوه إلى أبي طالب، فقال: يا بن أخي، ما تريد من قومك؟ قال: أريد منهم كلمة، تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم العجم الجزية، كلمة واحدة، قال: وما هي؟ قال: لا إله إلا الله. فقالوا: إلهاً واحداً؟ إن هذا لشيء عجاب، فنزل فيهم: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾ إلى قوله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾. **قال الله سبحانه:**

﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ[1] ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ

(١) أي في استكبار عن الحق والإيمان به، وخلاف.

ءَالِهَتَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ ۖ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ[1] ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا[2] قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴾ [ص: ٣٨/ ١-١٦].

افتتحت سورة (صّ) بهذا الحرف للتنبيه لما يأتي بعدها، وللتحدي وإثبات إعجاز القرآن بأنه متكون من أمثال هذا الحرف، فهل يمكن للعرب معارضته؟ وتالله إن القرآن الكريم كلام الله المعجز، وإن محمداً لصادق في نبوته، وإن القرآن ذو شرف ورفعة باقية خالدة و يختص حرف (صّ) في هذا الموضع بأن معناه: صدق الله وصدق رسوله محمد.

بل إن الذين أشركوا في استكبار عن قبول الحق والإيمان به، ومخالفةٍ لله ورسوله، ومعاندة ومكابرة، وكثيراً ما أهلك الله من قَبْل مشركي قريش كثيراً من الأمم الخالية، بسبب مخالفتهم للرسل وتكذيبهم الكتب المنزلة من عند الله تعالى، ونادوا حين نزول العذاب بهم طالبين النجاة والغوث، فلم يفدهم النداء وقتئذ شيئاً، لأن الوقت ليس وقت خلاص وفرار من العذاب بعد المعاينة، والقرن: الأمة من الناس في زمن واحد.

وتعجب مشركو مكة من إرسال رسول مبشر ومنذر منهم ومن أنفسهم

---

(١) أي ليس فيها مدة انتظار كالمدة بين الحلبتين أو الرضعتين . (٢) أي قسطنا من العذاب أو كتاب أعمالنا .

وعروبتهم، وقالوا لما رأوا معجزاته الباهرة: هذا ساحر خداع كذاب فيما يدعيه من النبوة. وهذا دليل على أنهم كذبوا الرسول من غير حجة ولا برهان.

ثم رد الله تعالى على شبهات ثلاث للمشركين تتعلق بالألوهية أو التوحيد، وبالنبوة، وبالمعاد. أما توحيد الإله: فلم يؤمنوا به وقالوا: أصير محمد الآلهة إلهاً واحداً، وهو الله؟ إن هذا لشيء غريب عجيب، بالغ النهاية في العَجَب. وانطلق أشراف قريش من مجلس أبي طالب قائلين: امضوا على ما كنتم فيه، واثبتوا على عبادة آلهتكم، واصبروا على التمسك بها. ما سمعنا بهذه الدعوة إلى توحيد الإله في آخر الملل وهي النصرانية، وما هذا إلا افتراء وكذب، لا حقيقة له، ولا مستند من الوحي والدين السماوي.

وأما النبوة: فأنكروا نبوة محمد قائلين: كيف يَنْزل القرآن على محمد دوننا، ونحن الرؤساء والأشراف؟ بل الحقيقة إنهم في شك من القرآن أو الوحي، وهذا الشك؛ لأنهم لم يذوقوا العذاب الإلهي، فإذا تعرضوا له صدَّقوا بالقرآن، وزال عنهم الشك، ولو ذاقوا العذاب، لتحققوا أن هذه الرسالة حق، أي إنهم لجهالتهم لا يبين لهم النظر، وإنما يبين لهم مباشرة العذاب.

فرد الله تعالى عليهم: بل إنهم باستبعادهم رسالة محمد ﷺ، هل يملكون مفاتيح خزائن الله ونعمه البالغة ورحمته التي فيها الهدى والنبوة وكل فضل، والله هو المانح لهذه النعم الكثير المواهب، حتى يعطوا نعمة النبوة لمن يشاؤون؟ والخزائن للرحمة: مستعارة، كأن المعنى: موضع جمعها وحفظها. بل أهم يملكون السماوات والأرض وما بينهما من المخلوقات والعوالم، فإن فرض أنهم يملكون، فليصعدوا في المعارج التي توصلهم إلى السماء، حتى يحكموا بما يريدون من عطاء ومنع. إنهم حقيرون ذليلون، وما هم إلا جند مغلوبون هنالك حيث يتحزبون فيه على المؤمنين.

وكلمة (أم) فيها معنى الإضراب عن الكلام الأول، والاستفهام، وقدرها سيبويه بـ (بل والألف) كقول العرب: «إنها لإبل أم شاءٌ». والإشارة بـ (هنالك) في قوله تعالى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾ إشارة إلى الارتقاء في الأسباب، أي هؤلاء القوم إن راموا ذلك هم جند مهزوم، من جملة الأحزاب والأمم المتعصبين في الباطل، والمكذبي الرسل، فأخذهم الله تعالى. و(ما) في قوله ﴿جُندٌ مَّا﴾ زائدة مؤكِّدة، وفيها تخصيص.

ثم قارن الله وضع قريش بأمثالهم الغابرين، فلقد كذبت الرسل قبل قريش، قوم نوح، وقبيلة عاد، وفرعون ذو الأوتاد، أي المباني العظيمة الثابتة، والحكم الراسخ، وقبيلة ثمود قوم صالح، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة، أي غيضة الشجر، أولئك الأحزاب، أي الموصوفون بالقوة والكثرة، كمن تحزب عليك أيها النبي عام الخندق بالمدينة.

لقد كذب كل هؤلاء الأقوام رسلهم الكرام، فوجب العقاب الإلهي لهم، جزاء وفاقاً. وما ينتظر كفار قريش إلا عقاباً بنفخة الساعة التي هي النفخة الثانية-نفخةُ الفزع التي ينفخها إسرافيل، فتطال جميع أهل السماوات والأرض إلا من استثنى الله، وليس لتلك النفخة انتظار كالمهلة التي بين الحلبتين، بل هي متصلة حتى مهلكهم.

وقال مشركو مكة وأمثالهم تهكماً واستهزاء حين سمعوا بتهديد العذاب في الآخرة: ربنا عجل لنا نصيبنا من العذاب الذي توعدنا به، ولا تؤخره إلى يوم القيامة. وهذا إنكار من الله على المشركين في مطالبتهم بتعجيل العذاب، وهو يتضمن إنكارهم البعث.

نعم الله على داود عليه السلام وفصله في الخصومة بين رجلين

توالت الأخبار وإيراد قصص الأنبياء السابقين في القرآن الكريم، لتذكّر أحوالهم، والتأسي بهم في صبرهم على أذى أقوامهم، محتسبين الأجر عند الله تعالى. وكان الخطاب فيها للنبي ﷺ ليتأسى بهم، ويهوّن عليه إعراض قومه عن دعوته، فتلك هي سيرة الأقوام الماضين مع رسلهم، وفي تلك القصص بيان أنواع النعم الإلهية التي أنعم الله بها على أولئك الأنبياء في صراعهم مع أقوامهم، وصبرهم عليهم، ثم نجاتهم وتدمير أعدائهم.

وهذه قصة نبي الله داود عليه السلام، وهي قصة مثيرة للعَجَب والعبرة، قال الله تعالى:

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ(١) إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ(٢) ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ(٣) كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ(٤) لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: ٣٨/١٧-٢٦].

---

(١) أي صاحب القوة والجلد . (٢) أي كثير التوبة والرجوع إلى الله . (٣) أي مجموعة . (٤) أي الشركاء .

تضمنت الآيات بيان عشر صفات لداود عليه السلام أنعم الله بها عليه، وهي: اصبر أيها النبي محمد على ما يتقوله قومك من الأقاويل التي يريدون بها الاستخفاف، ولا تلتفت إليها، واذكر عبدنا داود ذا القوة في الدين والصّدع به، فتأسَّ به وتأيد كما تأيد. والأيد: القوة، وهي في داود متضمنة قوة البدن وقوة الطاعة. وهو الأوّاب: الرجاع إلى طاعة الله تعالى في جميع أموره وشؤونه. وهو الصبور على طاعة الله تعالى.

وهو عبد لله محقِّق معنى العبودية بمعنى التذلل والخضوع والانقياد والاجتهاد في الطاعة. وهذه أربع صفات، والخامسة والسادسة: أن الله تعالى سخر الجبال والطير معه وذللها، تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار.

والسابعة: جمع الطيور وجعلها مع الجبال مطيعة له، تسبح الله تبعاً له، حال كون الطيور محبوسة في الهواء، فكلما سبّح داود جاوبته، وهذا يدل على أن داود عليه السلام كان حسن الترتيل، جميل الصوت.

والثامنة: قوة الملك، فقد قوينا ملكه وأيدناه بكل ما وهبناه إياه من قوة وجُنْد ونعمة.

والتاسعة: إيتاء الحكمة، فإنا أعطيناه الفهم والعقل والفطنة وفهم الدين وجودة النظر، والعلم الذي لا ترده العقول، والعدل، وإتقان العمل والحكم السديد.

والعاشرة: حسن الفصل في الخصومات، فإنا ألهمناه حسن الفصل في القضاء بين الناس بالحق، وإصابتَه وفهمَه، وإيجاز البيان، ومنها إيجاب اليمين على المدعى عليه، والبينة على المدعي، وكان إذا خاطب في مسألة، فصّل المعنى وأوضحه، لا يتلكأ، ولا يعجز عن البيان، ولا يعتريه ضعف، فكان كلامه عليه السلام فصْلاً.

ومن قضائه أنه تسلق عليه المحراب في يوم العبادة وفي غير يوم المحاكمة رجلان،

ففزع منهم، فقالا له: لا تخف، نحن متخاصمان جار بعضنا على بعض، فاحكم بيننا حكماً عادلاً، ولا تتجاوز الحق في الحكم ولا تُبعد في الحكم، واهدنا أو أرشدنا إلى طريق الحق والعدل. وسواء الصراط: وسطه والواضح منه.

واستفتحت الآيات بالاستفهام: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ..﴾ تعجباً من القصة وتفخيماً لها. وعبر عن الاثنين بالجمع: ﴿تَسَوَّرُوا﴾ و﴿دَخَلُوا﴾ و﴿قَالُوا﴾ على جهة التجوز في العبارة عن الاثنين، بلفظ الجمع. والمحراب: الموضع الأرفع من القصر أو المسجد، وهو موضع التعبد. وفزعه بسبب دخولهم من غير الباب ودون استئذان.

وموضوع الخصومة: إن هذا أخ لي في الدين والإنسانية، يملك تسعاً وتسعين شاة، وأملِك أنا شاة واحدة، فقال: ملّكنيها، وغلبني في المخاصمة والجدال، والحجة. والنعجة: أنثى الضأن. فقال داود عليه السلام بعد إقرار المدعى عليه بالدعوى: لقد ظلمك بهذا الطلب، وطمع عليك. وإن كثيراً من الشركاء في المال ليعتدي ويستطيل بعضهم على بعض، إلا من آمن بالله وخاف ربه، وعمل صالح الأعمال، وهؤلاء المؤمنون الصالحون قلة، وشعر داود وعلم أنما اختبرناه وامتحناه، بهذه الواقعة، فاستغفر ربه لذنبه وهو سوء ظنه بالخصمين، وأنهما أتيا لاغتياله، لوقوع اغتيالات في أنبياء بني إسرائيل، وخرّ ساجداً، وعبّر بالركوع عن السجود، لأن القصد منهما التعظيم، ورجع إلى الله بالتوبة من ذنبه.

والعرب تعبر بالظن عن المعلومات الناجمة من غير الحواس، ولا يستعمل الظن بمعنى اليقين التام البتّة، كما ذكر ابن عطية في تفسيره.

فغفر الله له سوء ظنه، لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين، وإن له عند ربه لقربى ومكانة رفيعة وحسن مرجع في الآخرة وهو الجنة.

يا داود إنا جعلناك حاكماً بين الناس في الأرض، فاقض بين الناس بالعدل، ولا

تتبع أهواء النفس أو مطامع الدنيا، فيوقعك ذلك في الضلال والانحراف عن الحق، إن الذين يحيدون عن طريق الحق والعدل، لهم عقاب شديد يوم القيامة، بسبب نسيانهم أهوال ذلك اليوم وتركهم الاستعداد له. والمقصود من ذلك تنبيه الحكام والقضاة على الحكم بين الناس بالحق والعدل.

التمييز في الحساب بين المصلحين والمفسدين

قد تكون كثرة النعم مُنْسية شكر المنعم، إذا كان الإنسان غارقاً في الأهواء والشهوات، مُمْعِناً في الكفر والضلال، بعيداً عن إشعاعات وأنوار الهدي الإلهي، خاليَ القلب من الإيمان وتوجيهات القرآن، ومن هنا لا غرابة أن يظن الكافرون أن خلق السماوات والأرض إنما هو باطل لا معنى له، كما ينسون النعم الدائمة، المعطاة لهم من أرزاق وخيرات، وقوة وعافية، ووعي وتفكير، وعلم ومعرفة وغير ذلك. ويترتب على هذا أنه لا مساواة في الحساب بين الجاحدين والمفسدين، وبين المؤمنين والمصلحين، وعلى الجميع أن يطلبوا الإيمان والتقوى من كتاب الله العزيز، قال الله تعالى واصفاً هذه الأحوال:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٢٧-٢٩].

هذه الآيات واردة بين قصتي داود وسليمان، عظة لأمة النبي ﷺ، ووعيداً للكفرة بالله تعالى.

أخبر الله تعالى أن الذين كفروا يظنون أن خلق السماوات والأرض وما بينهما، إنما هو باطل لا معنى له، وأن الأمر لا يؤول إلى ثواب وعقاب، فرد الله تعالى

عليهم مكذباً ظنهم، ومتوعداً إياهم بالنار، فالله تعالى لم يخلق السماوات والأرض وما بينهما من المخلوقات عبثاً لا حكمة فيه، أو لهواً ولعباً، وإنما خلق ذلك للدلالة على قدرته العظيمة، ومن أجل العمل فيهما بطاعته وعبادته وتوحيده، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥١/ ٥٦].

ثم أخبر الله تعالى عن كذب ظن الكافرين، وتوعَّدهم بالنار، أي إن ظن الذين كفروا بأن هذه المخلوقات العظمى خلقت عبثاً لغير غرض، فلا قيامة ولا حساب، هو ظن خطأ كاذب، فيا هلاك هؤلاء الكافرين في النار يوم المعاد والنشور، جزاء ما قدموا من الشرك والعصيان، وجحود نعم الله تعالى، وإنكار البعث.

وأبان الله تعالى الفرق في الحساب عنده بين المؤمنين العاملين بالصالحات وبين المفسدين الكفرة، وبين المتقين والفجَّار، فليس من العدل والمعقول والحكمة التسويةُ بين الفريقين. والمعنى: بل أنجعل الذين آمنوا بالله وصدقوا رسله، وعملوا بفرائضه، وأصلحوا أعمالهم، فأدوا الفرائض والواجبات على وجه متقن، كالمفسدين في الأرض بالمعاصي والجحود، أم نجعل أتقياء المؤمنين كأشقياء الكافرين والمنافقين والعصاة؟ ليس ذلك حقاً ولا عدلاً، ولا حكمة ولا نظاماً سوياً.

وفي هذا البيان والتفرقة بين الفريقين حض على الإيمان وترغيب فيه، ووعيد للكفرة والجاحدين. ونظير الآية كثير في القرآن المجيد، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم: ٦٨/ ٣٤-٣٦].

ثم أحال الله تعالى في طلب الإيمان والتقوى، على كتابه العزيز بقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي هذا كتاب لمن أراد التمسك بالإيمان والقربة إلينا، إن طريق السعادة الأبدية: هو اتباع القرآن الذي أنزله الله هدىً ورحمة للمؤمنين، وهو كثير الخير

والبركة، فيه الشفاء النافع لمن تمسَّك به، والنجاةُ لمن اتبعه، وقد أنزله الله تعالى للناس للتدبر والتفكر في معانيه، لا لمجرد التلاوة بدون تدبر وإمعان، وليتعظ أهل العقول الراجحة به وببيانه. وقوله تعالى: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ﴾ أي لتتدبروا آياته.

قال الحسن البصري رحمه الله: والله ما تدبرُّه بحفظ حروفه، وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله، ما يُرى للقرآن عليه أثر في خُلُق ولا عمل.

وفي هذه الآية اقتضاب وإيجاز بديع، كإعجاز كل القرآن العزيز. ووصف القرآن بالبركة، لأن أجمعها فيه، فهو يُورث الجنة، ويُنقذ من النار، ويحفظ المرء في حال الحياة الدنيا، ويكون سبب رفعة شأنه في الحياة الآخرة.

وظاهر هذه الآية يقتضي أن التدبر من أسباب إنزال القرآن، فالترتيل أفضل من أجل هذا، إذ التدبر لا يكون إلا مع الترتيل، والترتيل وسيلة لفهم المعاني، والاتعاظ بالأحكام، والاسترشاد بالهدي القرآني، وحمل الإنسان على الاتباع والالتزام، وترك هَجْر القرآن، كما عليه حال بعض الناس اليوم.

والآية أيضاً دليل على وجوب معرفة معاني القرآن، والمعرفة تقود إلى الاتباع، قال الحسن البصري: تدبر آيات الله: اتباعها.

إن من أجلّ مقاصد القرآن إصلاح الحياة الإنسانية، بإصلاح الفرد والجماعة، وإصلاح الروابط والعلاقات في جميع مجالاتها وأنواعها.

نعم الله تعالى على سليمان عليه السلام

أفاض الله فيض نعمه السخية على سليمان، كما أفاض على أبيه داود عليهما السلام، واستمرار هذا الفيض الإلهي يقتضي أن يُشكَر المحسن، ويتعظ المسيء بما

يجده في قصتي داود وسليمان عليهما السلام من عبر وعظات، فإنهما جمعا بين الملك العظيم في الدنيا، والنبوة والرسالة، ولم يمنعهما ذلك الملك من شكر الله وعبادته وطاعته، فهل لقريش وغيرها من الزعامات أن يجدوا في هذه القصة ما يحملهم على شكر المنعم، وعبادته؟ قال الله تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ[1] ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى ۖ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ[2] ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٣٠-٤٠].

وهب الله تعالى سليمان ولداً لداود عليهما السلام، وأثنى عليه بأوصاف من المدح تضمنها قوله تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ والهبة والعطية بمعنى واحد، والمعنى: لقد أعطينا داود ابناً نبياً وهو سليمان، وهو عبد لله صالح، لأنه رجّاع إلى الله تواب، كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله عز وجل في أكثر الأوقات. وذكر الله تعالى واقعتين لسليمان من وقائع توبته.

الأولى- قصة عرض الخيل عليه. والمعنى: اذكر أيها الرسول محمد مادحاً حين عرض على سليمان عليه السلام في مملكته وسلطانه بعد العصر آخر النهار الخيول (الجياد) القائمات على ثلاث قوائم وطرف حافر الرابعة[3]، وهي آلاف تركها له

(١) أي الخيول القائمات . والجياد: السراع في العَدْو .(٢) أي القيود والأغلال . (٣) وهذه علامة الفراهة أي النشاط والحيوية مع الجمال وحسن المنظر .

أبوه، ليتعرف أحوالها، ويستعرضها، كالاستعراضات العسكرية اليوم، فقال سليمان: لقد أحببت هذه الخيل وآثرتها على غيرها حباً حصل بذكر الله وأمره، لا بهواي وشغفي، فكانت تركض حتى تغيب عني بسبب الغبار وبُعْد المسافة. وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ معناه: أحببت هذه الخيل حبَّ الخير، أو آثرت محبتها[1]. ومواراتها بالحجاب: بعدها عنه. والمراد: أن حبه للخيل لم يكن إلا امتثالاً لأمر الله بربط الخيل لتكون عدة الجهاد في سبيل الله، وتقوية دينه، ونشره بين الناس.

والخير عند بعضهم: هو الذي عند الله في الآخرة بسبب ذكر ربي. والظاهر أن المراد بالخير: هو المال، لكثرة استعماله في المال عند العرب. وقال أبو حيان: الخير عند العرب تسمى الخيل.

والخلاصة أو المراد: أحببت الجياد الصافنات أو عرضها حباً مثل حب الخير، منيباً لذلك عن ذكر ربي، وليس المراد بالخير هو الخيل فقط.

ثم أعاد سليمان عليه السلام عرض الصافنات أمامه، فقال: أعيدوا هذه الخيل إلي، فلما عادت جعل يمسح بيده سيقانها وأعناقها ونواصيها، تشريفاً لها وتكريماً وتدليلاً، ومحنة لها، وسروراً بها. وطفق: معناه دام يفعل. ولا يصح القول بأن عرضها عليه ألهاه عن صلاة العصر حتى غربت الشمس، أو أنه قطّع قوائم الخيل بالسيف، فذلك من الإسرائيليات. وإنما المراد: اختباره بمحبة الخيل حباً شديداً، لمعرفة مدى تواضعه والبعد عن الاغترار، واشتغاله بالعرض والندم عليه.

والواقعة الثانية: إلقاؤه جسداً على كرسيه: والمعنى: تالله لقد اختبرنا سليمان عليه السلام باختبار آخر، وهو كما قال الرازي الفتنة في جسده، حيث ابتلاه الله

(١) وعلى التأويل الأول يكون (حب) منصوباً على المصدر، وعلى التأويل الثاني بتضمين الفعل معنى آثرت.

بمرض شديد في جسمه، حتى نحل جسمه، وأصبح هزيلاً، ثم أناب، أي رجع إلى حال الصحة، وقال: رب اغفر لي ما صدر عني من الذنب الذي ابتليتني لأجله، وهذا من باب السمو بتصور الخطيئة، التي لا تَعْدو أن تكون تركاً للأفضل والأولى، وامنحني ملكاً عظيماً لا يحصل لأحد غيري مثله، إنك أنت الكثير الهبات والعطايا، فأجب دعائي. ويكون المراد بإلقاء الجسد على كرسيه: أنه مرض مرضاً كالإغماء، حتى صار على كرسيه جسداً، كان بلا روح. والمراد بقوله ﴿لَا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ أن يتفرد به بين البشر كرامة له.

فأجاب الله دعاءه ومنحه خمس نعم هي:

١- لقد ذللنا الريح، تنقاد لأمره، وتجري لينة طائعة في قوة وسرعة، تحمله حيث اتجه إلى أي مكان أراده.

٢- وذللنا له أيضاً الشياطين تعمل بأمره، إما في بناء المباني العظيمة، وإما في الغوص في البحار، لاستخراج الدرر واللآلئ والمرجان، وإما في أعمال أخرى.

٣- وذللنا له شياطين آخرين، وهم مردة الشياطين، حتى إنه قرنهم في القيود والسلاسل، قمعاً لشرهم، وعقاباً لهم. ومقرنين: موثقين.

٤- وجعلنا له حرية التصرف فيما أعطيناه من الملك العظيم والثروة، والسيطرة على الريح والشياطين، وأذنّا له أن يمنح من ثروته من يشاء، ويمنع من يشاء، بلا حساب عليه في الإعطاء أو الإمساك (المنع) أو يمنّ على من شاء من الجن فيطلقه أو يقيده كما قال قتادة.

٥- وإن له في الآخرة لقربى وكرامة عند الله تعالى، وحسن مرجع وهو الجنة، وفيض ثواب، فهو ذو حظ عظيم عند الله يوم القيامة.

إن هذه النعم العظيمة على سليمان عليه السلام تدل على عظيم فضل الله، وعلى

أن سليمان كان نبياً ورسولاً من الصالحين كأبيه، لم يصدر عنه إلا كل ما هو خير متفق مع مقتضى الرسالة، ودعوة الناس إلى عبادة الله وشكره وليس دعاؤه بطلب ملك يتفرد به مراداً به: أنه لا يعطي الله تعالى نحو ذلك الملك لأحد، وإنما المبالغة في هبة الملك وطلبه.

محنة أيوب عليه السلام

أيوب عليه السلام: هو نبي من أنبياء بني إسرائيل، من ذرية يعقوب عليه السلام، وهو المبتلى في جسده وماله وأهله، ولكن صبر وسَلِم معتقده ودينه، ولم يكن ابتلاؤه بمرض مُعْدٍ أو منفّر طبعاً، خلافاً لما زعم بعضهم، وإنما كان مرضه جلدياً مضعفاً غير منفر، وبعد أن طال صبره دعا ربه، فأوحى إليه بالاغتسال والشرب من ماء نابع، حفره بقدمه، فشفي وعوفي، ورد الله عليه أهله وزاده مثلهم في الذرية، وافتدى الله يمينه بضرب زوجته بعود فيه مئة قضيب من الشجر الرطب، فيضرب به ضربة واحدة، يبر بها يمينه. وهذه حكاية محنته وبلواه وزوالها عنه. قال الله تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ[1] وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا[2] فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٤١-٤٤].

الاعتبار والاتعاظ بقصص الأنبياء السابقين هو غاية إيراد قصصهم، فمنهم كثير

(١) أي بضر ومشقة وتعب. (٢) حزمة صغيرة من حشيش أو شجر رطب.

النعمة كداود وسليمان عليهما السلام، ومنهم من ابتلي وامتحن بالمرض كأيوب عليه السلام، ففي حال النعمة شُكْر وحَمْد، وفي حال النقمة صبر وتفويض لله.

والمعنى: اذكر أيها النبي محمد لقومك مدى صبر أيوب عليه السلام على مرضه مدة طويلة من الزمان، قيل: هي نحو من ثماني عشرة سنة، اذكره حين دعا ربه: بأنني قد مسني الضر، وألحق بي الشيطان الضر والمشقة والألم. ولم يكن مرضه منفِّراً الناس منه، وإنما هو مرض جلدي ظاهري، قابل للشفاء. أخرج ابن جرير الطبري في تفسيره عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ: أن أيوب عليه السلام بقي في محنته ثماني عشرة سنة.

فأجاب الله دعاءه، وأمره أن يضرب برجله الأرض، فنبعت عين جارية، فاغتسل فيها، وشرب منها. وقوله: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ﴾ الركض: الضرب بالرِّجل. والمعنى اركض الأرض، ولما فعل ذلك عوفي من مرضه.

وأعاد الله له أيضاً أهله وولده الذين تركوه، ووهب له ماله في الدنيا ورد ما هلك من ماشيته، وبارك في جميع ذلك، ووُلد له الأولاد حتى تضاعفت الحال، رحمة من الله به، وتذكرة لأصحاب العقول السديدة، فإن ما بعد الصبر والشدة إلا الفرج، وما بعد العسر إلا اليسر.

وكانت زوجته تتردد عليه مدة مرضه، فيوسوس لها الشيطان ويقول لها: لو سجد هذا المريض للصنم الفلاني لبرئ، ولو ذبح عناقاً (أنثى المعز أو الضأن إلى تمام الحول) للصنم الفلاني لبرئ، ويعرض عليها وجوهاً من الكفر، فكانت ربما عرضت ذلك على أيوب، فيقول لها: ألقِيت عدو الله في طريقك؟ فلما أغضبته بهذا ونحوه، حلف لئن برئ من مرضه ليضربنها مئة سوط.

فلما برئ، أمره الله تعالى أن يأخذ بيده قبضة أو حُزمة كبيرة من القضبان ونحوها

من الشجر الرطب، فيضربها به ضربة واحدة فتبر يمينه. وهذا حكم ورد في شرعنا حيث أخرج أبو داود عن النبي ﷺ مثله في حد رجل زَمِن (مريض مرضاً مزمناً) بالزنى، فأمر رسول الله ﷺ بعِذْق (عدد من النخيل) فيه مئة شمراخ أو نحوها، فضُرب به ضربة . وقال به بعض الفقهاء وهو الإمام الشافعي.

ثم أثنى الله تعالى على أيوب عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي لقد وجدناه صابراً على البلاء الذي ابتليناه به في جسده، وذهاب ماله وأهله وولده، نِعْم الرجل العبد لله أيوب، إنه رجّاع إلى الله تعالى بالتوبة والاستغفار، زيادة في حسناته، ورفع درجته، لا بسبب ذنب ارتكبه، فجازيناه بتفريج كربته، مع أنه ليس في الشكوى إلى الله إخلال بالصبر، ولكن إيمان الأنبياء المطلق الذي يستلهمون منه أن الله تعالى عليم بهم، قد لا يطلبون من الله شيئاً، لإذهاب همهم وغمهم، كما فعل إبراهيم عليه السلام حينما ألقي في النار، لم يَدْعُ ربه، وإنما قال: «علمه بحالي يغنيه عن سؤالي».

وروي عن أيوب عليه السلام: أنه كان يقول كلما أصابته مصيبة: «اللهم أنت أخذت، وأنت أعطيت» وكان يقول في مناجاته: «إلهي قد علمت أنه لم يخالف لساني قلبي، ولم يتبع قلبي بصري، ولم يُلْهني ما ملكت يميني، ولم آكل إلا ومعي يتيم، ولم أبتْ شبعان ولا كاسياً، ومعي جائع أو عُريان».

هذه أمثلة عالية من مواقف أيوب عليه السلام، تعدّ ذخراً عظيماً، وقدوة حسنة للمؤمنين، فلا يصدر عنهم في وقت المرض أو المحنة أو الأذى إلا ما يتفق مع الأدب مع الله تعالى والتفويض إليه.

نعم الله تعالى على إبراهيم وذريته عليهم السلام

هذه أيضاً كما سبق سيرة طيبة عبقة لثُلّة من الأنبياء، يراد بها العظة والعبرة، والتعليم للبشر، والتخلق بأخلاقهم، والعمل بأعمالهم التي من أجلها استحقوا ما أعد الله لهم ولأمثالهم في هذه الآيات الآتية من الثواب الجزيل والنعيم العظيم. تضمنت الآيات أمر النبي محمداً عليه الصلاة والسلام أن يذكر للعبرة والعظة صبر إبراهيم حين ألقي في النار، وصبر إسحاق في دعوة بني إسرائيل إلى الرشاد، وصبر يعقوب حين فقد ولده وذهب بصره، وصبر إسماعيل للذبح، وصبر اليسع وذي الكفل على أذى بني إسرائيل، قال الله تعالى واصفاً كل ذلك بإيجاز بديع:

﴿وَٱذْكُرْ عِبَدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ(١) ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ(٢) أَتْرَابٌ(٣) ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ(٤) ﴿٥٤﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٤٥-٥٤].

هذه أخبار سارَّة عن فضائل الأنبياء والمرسلين، اذكر أيها الرسول محمد عمل وصبر مجموعة من عبادنا المرسلين: إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي القوة في العبادة والبصيرة النافذة، فإنهم دأبوا على الطاعة، وقوّيناهم على العمل الصالح المرضي.

وذلك لأننا خصصناهم بميزة خالصة، وهي العمل للآخرة، والتزام الأوامر، واجتناب النواهي، لتذكرهم الآخرة، وإيمانهم المطلق بها، وذلك شأن الأنبياء والرسل.

---

(١) أي المختارين الخيّرين. (٢) حابسات نظرهن على الأزواج. (٣) أي لدات في سن واحدة. (٤) أي انقطاع وفناء.

وقوله: ﴿ذِكْرَىٰ﴾ مصدر، و﴿ٱلدَّارِ﴾ منصوبة بـ (ذكرى) على معنى: أخلصناهم بأن خلص لهم التذكير بالدار الآخرة، ودعوا الناس إليها، وحضوهم عليها.

وإنهم عند الله لمن المختارين من أبناء جنسهم، الخيِّرين، المطبوعين على حب الخير وفعله، فلا يميلون للأذى، وليس في قلوبهم شيء من الضغينة والحقد والحسد والبغض لأحد، ولا يقترفون منكراً، ولا يرتكبون معصية، فهم أخيار مختارون من الله تعالى.

واذكر أيضاً أيها النبي الرسول محمد صبر إسماعيل واليسع وذي الكفل وأعمالهم الصالحة، فكل منهم أيضاً من الأخيار المختارين للنبوة وأداء الرسالة الإلهية. ثم أخبر الله تعالى عن الهدف من إيراد هذه الأخبار النبوية، فهذه الآيات القرآنية التي تعدّد محاسن هؤلاء الأنبياء تذكُّر لهم وتنويه، وذكر جميل في الدنيا، وشرف يُذكرون به أبداً، وإن لهم وللمتقين أمثالهم لحسن مرجع، يرجعون فيه في الآخرة إلى مغفرة الله ورضوانه ونعيم جنته. ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ إشارة إلى القرآن، أي هو ذكر للعالم.

ثم فسَّر الله تعالى المقصود بالمرجع وحسن المآب: وهو أن لهم جنات إقامة دائمة، مفتَّحة لهم الأبواب، فإذا قدموا فتحت لهم أبواب الجنة، إكراماً لهم، تفتحها الملائكة ليدخلوها مكرمين. وفي هذا إيماء بتخصيصاتهم وبسعتها وبهائها.

تراهم متكئين في الجنات على الأرائك والأسرّة، يطلبون ما لذّ وطاب مما شاؤوا من أنواع الفاكهة الكثيرة، وأنواع الشراب الكثير العذب الطيب وغير ذلك، فمهما طلبوا وجدوا، وأُحضر كما أرادوا.

ولهم زوجات قاصرات حابسات طرفهن على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهن،

وهم لدات: متساويات في السن والحسن والجمال، يحب بعضُهن بعضاً، فلا تباغض ولا غيرة عندهن في نفوسهن.

وهذا المذكور من صفات الجنان: هو الذي وعد الله به تعالى عباده المتقين، وهو الجزاء الأوفى الذي وُعدوا به، وأجِّل ليوم الحساب في الآخرة، بعد البعث والنشور من القبور.

وصفة هذا النعيم: الدوام، فهذا الذي أنعمنا به عليكم لرزق دائم لا انقطاع له ولا فناء أبداً، كما جاء في آيات أخرى، منها: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ١٦/ ٩٦]. ومنها: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١١/ ١٠٨] ومنها: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [الانشقاق: ٨٤/ ٢٥] أي غير منقطع. ومنها: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَآ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ [الرعد: ١٣/ ٣٥].

إن الترغيب بالنعيم محبَّب لدى النفوس البشرية، مما يجعلهم طامعين بتحصيله، حريصين على الوصول إليه، فهو من جملة البواعث والدوافع، إلى الطاعة والتأسي بالأنبياء الكرام، تنزلاً في تحقيق الرغبات لمستوى طبائع البشر وتطلعاتهم، لا أن الله ناصب نفسه لتلبية الأهواء، فهذ طبع للبشر، قصد به الترغيب.

عقاب الطغاة

كلما تلا الإنسان آيات العذاب الشديد وألوان العقاب للكافرين الطغاة، اقشعر بدنه وارتعدت فرائصه، وخاف أن يناله شيء من ذلك، لشدة الوصف، وقسوة العذاب، وتصويره كأنه واقع ماثل أمامه، يراه ولا يطيق تحمله، وحدوث هذا التأثر، والتفاعل مع الوصف، يحمل المؤمن على تفادي الأسباب، والبعد عن

موجبات العذاب، والبحث عن موجبات الرحمة والمغفرة، والنجاة والتخلص من آفات العقاب وويلاته في الآخرة.

وهذه آيات تصف ما يستحقه أهل الكفر والطغيان، قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٥٥-٦٤].

المعنى: الأمر المذكور في آيات سابقة وهو جزاء المؤمنين هذا، وهذا واقع أو قائم، وإن للطغاة الكافرين الخارجين عن حدود الطاعة الإلهية، المكذبين لرسله، لسوء مصير، وشر مآب أو مرجع. ذلك المصير: هو إصلاؤهم في نار جهنم وإحراقهم، فبئس الفراش الذي مهدوه لأنفسهم، أي كأن ما تحتهم من النار كالمهاد أو الفراش. والطاغي: المفرط في الشر، والطغيان المراد هنا: هو الكفر، والمآب: المرجع، وجهنم بدل من قوله: ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ ويصلونها: يباشرون حرها وحرقها، والمهاد: ما يفرشه الإنسان ويتصرف به.

الأمر هذا فليذوقوه، أو هذا حميم: وهو الماء الحار فليذوقوه، وهذا هو الغساق: صديد أهل النار السيال بتجرعونه.

ولهم عذاب آخر كالحميم والغساق، أشد كراهية وإيلاماً كالزقوم، وتلك ألوان من العذاب المختلفة المتضادة.

وتقول الطائفة الأولى التي تدخل النار مع زبانية جهنم: هذا فوج أي جمع كبير أو كثير داخل معكم، لا مرحباً بهم، أي لا كرامة لهم، إنهم داخلو النار كما دخلناها.

وقوله تعالى: ﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ أي من مثله وعلى شاكلته. و ﴿أَزْوَٰجٌ﴾ أي أصناف وأجناس. و ﴿مُّقْتَحِمٌ﴾ داخل فيها بشدة.

فيقول الأتباع لقادتهم: بل أنتم لا مرحباً بكم، أي لا كرامة لكم ولا خير تلقونه ولا سعة مكان، وأنتم أحق بهذا منا، إنكم بإغوائكم أسلفتم لنا ما أوجب هذا، فكأنكم فعلتم بنا هذا، فبئس المقر جهنم لكم ولنا.

فيقول الأتباع أيضاً للرؤساء: يا ربنا كل من أوردنا هذا المورد، في النار، فزده عذاباً مضاعفاً في جهنم عقاباً على الكفر والإضلال.

وقال جماعة من زعماء الكفر تحسراً وتعجباً: ما لنا لا نجد في النار رجالاً كنا نعدهم في الدنيا أشراراً لا خير فيهم؟! يريدون بذلك ضعفاء المؤمنين، كعمار وخباب وصهيب وبلال وسالم وسلْمان. والزعماء القائلون هذا في عهد النبي ﷺ: هم أبو جهل بن هشام، وأمية بنُ خلف، وأهل القليب (أهل البئر الذين دفنوا فيه من زعماء المشركين في بدر). ويريدون بقولهم: «كنا في الدنيا نعدّهم أشراراً لا خلاق لهم» أنهم في زعمهم سيكونون في النار. هل لأننا سخرنا منهم أو سخرناهم في أعمال الدنيا، فلم يدخلوا النار، أم مالت عنهم الأعين والأبصار، وهم في الجنة؟! أمفقودون هم أم زاغت عنهم الأبصار؟ والمعنى: أليسوا معنا، أم هم معنا ولكن أبصارنا تميل عنهم فلا نراهم؟!

ثم أخبر الله تعالى نبيه ﷺ بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ أي إن ذلك الذي حكاه الله عن قادة الكفر: هو حق قائم ثابت، لا بد منه، ولا بد أن يتكلموا به، فإن تخاصم أو تنازع أهل النار أمر حتمي واقع يوم القيامة، وتخاصم بدل من قوله: ﴿لَحَقٌّ﴾

إن هذا الحوار الحامي يقع بين الرؤساء والأتباع، رؤساء الضلالة والإضلال،

والدعوة إلى الكفر والجحود الذين يترقبون لقاء فئة المستضعفين المؤمنين في النار معهم لدنوهم، ويسخرون من أتباعهم، وأتباعهم يقابلونهم بأسوأ الردود، ويدعون ربهم أن يضاعف لهم العذاب بسبب إغوائهم ودعايتهم للفساد والإفساد.

التصديق بالقرآن والتكذيب به

أخبر الله تعالى في كتابه عن أسباب الدعوة إلى الإيمان بالقرآن الكريم والتصديق به، لاشتماله على تبيان أصول العقيدة الثابتة: وهي توحيد الله عز وجل، وإثبات نبوة الرسول محمد بن عبد الله ﷺ، وإثبات المعاد أو اليوم الآخر، فيكون التكذيب بهذه الأصول العقدية جُرْماً عظيماً، وبعداً عن الحقيقة والواقع، فمن كذب بذلك جنى على نفسه، ومن آمن بتوحيد الله تعالى، وصدق نبيه محمداً، وأيقن بوجود القيامة، فهو العاقل الناجي، قال الله تعالى موضحاً هذه الأخبار:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٦٥-٧٠]

أخبر أيها النبي عن مهمتك ورسالتك، وقل للكفار المشركين في مكة، وغيرها المكذبين بما جئت به: إنما أنا مخوف لكم من عقاب الله وعذابه، مبلّغ ما يتعرض له المنكر الكاذب من أحوال السوء، بسبب الإعراض عن دعوتي ورسالتي. إن القرآن الكريم وجميع ما تضمنه من دعوة التوحيد والإيمان بالمعاد حق وصدق وواقع.

ليس لي من أغراض أو أهداف إلا الإنذار والتخويف من سوء المصير، وشدة العذاب، وفداحة العاقبة لكل من كذب برسالتي، وأنكر وجود الله تعالى ووحدانيته، فليس هناك في الوجود على الإطلاق إلا إله واحد لا شريك له، فهو

الإله الجبار القهار لكل شيء سواه، وهو مالك جميع السماوات والأرض وما بينهما من المخلوقات، والمدبر لها والمتصرف في شؤونها، وهو القوي العزيز الغالب الذي لا يُغلب ولا يقهر، وإنما يغلب كل ما سواه، وهو غفار الذنوب لمن أطاعه والتجأ إليه.

والتصديق بالقرآن وبوعد الله نجاة، والتكذيب به هلكة وخسران وضياع.

ثم توعد الله المخالفين أمر الله والرسول، المعرضين عن القرآن، فقل أيها الرسول للمشركين: إن هذا الذي أخبرتكم به من كوني رسولاً منذراً، وأن الله واحد لا شريك له، وأن القرآن كلام الله ووحيه أنزله علي: هو خبر عظيم خطير، لكنكم أنتم معرضون عما أقول، لا تتفكرون فيه. وفي هذا توبيخ شديد لهم وتقريع، لإعراضهم عن دعوة الرسول محمد ﷺ.

والنبأ في كلام العرب: بمعنى الخبر، والقرآن: أوثق الأخبار وأعظمها. ثم أخبر الله تعالى بما يدل على نبوة محمد ﷺ، ومضمون الخبر: الإعلان من النبي: أنه لم يكن له قبل الوحي القرآني أي علم بأحوال الملأ الأعلى، وما دار بينهم حين اختلفوا في شأن آدم عليه السلام وذريته، وجعلهم في الأرض، وامتناع إبليس عن السجود له، فلولا الوحي لم يكن النبي يعلم بتلك الغيبيات. فالدليل على صدق هذا النبي: أنه يخبر قومه بغيوب ومعلومات قديمة لم تأت إلا من عند الله تعالى، ومنها أنه لم يكن له علم بالملأ الأعلى وقت خصومتهم في شأن آدم عليه السلام، لولا أن الله تعالى أخبره بذلك.

والملأ الأعلى هنا: الملائكة أشراف الخلق عدا البشر.

ومما أوحى الله لنبيه أن يخبر قومه: أنه ما يوحى إليه إلا للإنذار الواضح، والتبليغ البيّن القاطع، لا لأمر آخر من تسلط أو ملك، أو تحقيق أي مصلحة أخرى.

لقد تجسَّدت رسالة النبي محمد ﷺ في الإخبار عن أمور عظيمة: وهي الخبر بتوحيد الله، وقدرته، وتدبيره، وقهره وغلبته، وصدق الوحي والقرآن وكونه كلام

الله تعالى، وحصر مهمة النبي في الإنذار والتخويف من سوء العذاب، وقبح العقاب، وإحقاقُ الحق، وإبطال الباطل، وإعلان النجاة لمن صدق بالقرآن، والهلاك والخسران لمن كذب به أو أعرض عنه.

خلق آدم عليه السلام وتكريمه

تكرر الإخبار عن قصة خلق آدم عليه السلام وإكرامه، في القرآن الكريم مرات كثيرة، لأن في بيان تلك القصة إيحاء واضحاً على تكريم الإنسان بتكريم أصله، وذلك بأمر الملائكة بالسجود له سجود تحية وتقدير، لا سجود عبادة وتأليه وتقديس. وكان جميع المأمورين مطيعين أمر الله تعالى ما عدا إبليس الذي اغتر بعنصريته، وأنه خلق من نار، وآدم خلق من تراب، وعنصر النار المرتفع أقوى وأسمى، من عنصر التراب الخامد الراكد. وهذا ما صرحت به الآيات القرآنية الشريفة الآتية التي ختمت بها سورة صٓ:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ(١) وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ(٢) ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ

(١) أي أكملت خلقه . (٢) أي أنا الحق، فهو أي الأول خبر لمبتدأ محذوف تقديره: أنا الحق، أو المراد به القسم أي فوالحق، والحق الثاني منصوب بأقول.

أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٧١-٨٨].

المعنى: اذكر أيها النبي قصة خلق آدم، حين قال الله تعالى للملائكة: إنني موجد بشراً مخلوقاً هو آدم من طين، أي تراب مخلوط بالماء، فإذا أتممت خلقه، بعثت فيه الحياة وأوجدته بأن نفخت فيه من روحي، فاسجدوا له سجود تحية وتكريم، لا سجود عبادة وتأليه وتقديس.

وقوله تعالى: ﴿مِن رُّوحِى﴾ إضافة مِلْك إلى مالك، لأن الأرواح كلها هي ملك لله تبارك وتعالى، وأضيف ذلك إلى الله تشريفاً. والنفخ من الروح تمثيل لإفاضة ما تكون به الحياة، فليس هناك نافخ ولا منفوخ.

فامتثل الملائكة أمر الله تعالى، وسجدوا لآدم بأجمعهم لم يبق أحد منهم، وفي آن واحد، لا متفرقين إلا إبليس امتنع متكبراً متعاظماً عن السجود، وكان بهذا الرفض أو الامتناع كافراً، من فئة الكافرين، لمخالفته أمر الله تعالى، والخروج عن طاعته.

فقال الله تعالى على سبيل التوبيخ والإنكار: يا إبليس ما الذي منعك من السجود لآدم، الذي توليت خلقه بنفسي، من غير أب ولا أم، هل استكبرت عن السجود الآن، أو كنت من القوم المتعالين عن ذلك في الماضي؟ والمراد: إنكار الأمرين معاً، وهما رفض السجود والتعالي عن السجود.

قال إبليس: إنني خير من آدم، فإني مخلوق من نار، وآدم مخلوق من طين، والنار خير وأشرف من الطين في زعمه، لارتفاعها وعلوها، ولأن التراب عنصر راكد هابط، لا ارتفاع فيه. وهذا توهم أن النار أفضل من الطين، وهو قياس فاسد، لا يصلح أمام النص أو الأمر الإلهي بالطاعة والسجود لآدم.

فقال الله تعالى: فاخرج يا إبليس من الجنة أو من السماء، فإنك مرجوم

بالكواكب، مطرودٌ من رحمة الله ومن إحسانه، وتنصبّ عليك لعنتي الدائمة وسخطي إلى يوم القيامة. فأُخرج من جنة الخلد: وهي الجنة الحقيقية المخلوقة من القديم جنة السماء، كخلق النار، وأهبط إلى الأرض، بلا خلاف.

والرجيم: المرجوم بالقول السيئ، واللعنة: الإبعاد، ويوم الدين: يوم القيامة، والدين: الجزاء. والمراد بأن اللعنة على إبليس مستمرة دائمة، مخلّدة. وإنما قيدت بيوم الدين: ليبين له طريق التوبة قبل يوم القيامة، وما بعد يوم القيامة واضح أنه لا تقبل التوبة، إذ الآخرة ليست دار عمل.

فطلب إبليس قائلاً: رب أمهلني في الحياة، ولا تحكم علي بالموت إلى يوم البعث، بعث الأجساد من القبور، فأمهله الله وجعله باقياً إلى يوم الوقت المعلوم: وهو عند النفخة الأولى. وقد طلب إبليس الإمهال إلى يوم البعث، ليتخلص من الموت، وذلك إلى وقت الصعق لا إلى وقت البعث وهو الآن حي مغو مضل. فلما أمن من الموت تمرَّد وطغى، وتحدى قائلاً: أقسم بعزتك، أي سلطانك وقهرك: لأغوين وأضللنّ بني آدم بتزيين الأهواء والشهوات لهم، إلا عبادك منهم الذين أخلصتهم لطاعتك، وعصمتهم من الضلال.

فأجابه الله قائلاً: فالحق الثابت أنا، وأقول الحق، لأملأن جهنم منك ومن أتباعك جميعاً، ممن أطاعك وتبع إغواءك. والإغواء: تزيين المعاصي.

وقل أيها الرسول للمشركين من قومك: لا أطلب منكم أجراً على تبليغي رسالة الله إليكم، ولست من المتقولين على الله، حتى أقول ما لا أعلم أو أدعو إلى غير ما أمر الله تعالى. والتكلف: التصنّع والاختلاق. وما هذا القرآن إلا تذكرة لجميع العوالم من الإنس والجن، ولسوف تعرفُنَّ خبره وصدق نبأه بعد زمان قريب: إما بعد الموت وإما يوم القيامة.

تفسير سورة الزُّمَر

تنزيل القرآن وغاياته

تفضل الله تعالى على عباده بأعظم هدية وأكرم منحة خالدة: ألا وهي تنزيل القرآن الكريم تدريجاً في مبدأ الأمر والوحي الإلهي إلى أن اكتمل وحفظ حفظاً تاماً في الصدور والكتابة، من غير زيادة ولا نقص فيه، ولا تعديل ولا تبديل لشيء فيه، وسيظل محفوظاً بكفالة الله وتعهده إلى يوم القيامة، لأنه منهاج الحياة السديدة، في العقيدة، والعبادة، والمعاملة، والأخلاق، والعلاقات الإنسانية والاجتماعية. أنزله الله بالحق والميزان، فأبطل عقائد المشركين الوثنية، ونفى اتخاذ الله ولداً، وشرع شرائع الشرائع، وأبان الحلال والحرام، ونظم أصول الحياة والآداب والفضائل، لينقذ الله به العالمين من الضلالة إلى النور، ومن الزيغ والانحراف إلى طريق الهداية والاستقامة، قال الله تعالى مبيناً مصدر القرآن، ومحدداً غاياته وأهدافه في مطلع سورة الزمَر:

﴿تَنزِيلُ[1] ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٤﴾ [الزمر: ٣٩/ ١-٤].

---

(١) مرفوع بالابتداء، والخبر قوله: (من الله) أو أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذا تنزيل.

هذا الكتاب العظيم وهو القرآن الكريم تنزيل من الله تعالى، العزيز: في قدرته الذي لا يغلب، الحكيم في إبداعه وصنعه، فهو الكتاب الإلهي الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، إنا أنزلنا أيها النبي الرسول القرآن مقترناً بالحق، متضمناً إياه، أي الحق فيه وفي أحكامه وفي أخباره، فكل ما فيه حق، من إثبات التوحيد والنبوة والمعاد وأنواع الأحكام والتكاليف الشرعية، ولم ننزله مشوباً بالباطل الكاذب الذي لا قرار له.

فاعبد الله وحده لا شريك له، وادع الخلق إلى ذلك، وأخبرهم أنه لا تصلح العبادة إلا لله وحده، وأنه ليس له شريك ولا نظير.

والإخلاص: أن يقصد العبد بعمله وجه الله تعالى ورضوانه، ولا يقصد شيئاً آخر. والدين: العبادة والطاعة، وأساس توحيد الله، وتنزيهه عن الشريك والنظير.

ألا لله العبادة والطاعة الخالصة من شوائب الشرك والرياء وغيره، وأما ما سواه من الدين، فليس بدين الله الخالص الذي أمر به.

ومعنى الآية: الأمر بتحقيق النية لله في كل عمل. والدين هنا: يعم المعتقدات وأعمال المكلفين العضوية التي يمارسونها. وقوله سبحانه: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ بمعنى: من حقه ومن واجباته، لا يُقبل غيره.

وأما المشركون الذين والوا غير الله تعالى، وعبدوا سواه، وهي الأصنام أو الكواكب أو الملائكة أو بعض البشر، وقالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله تقريباً، ويشفعوا لنا عنده في حوائجنا، فهم في أسوأ عاقبة، وأقبح مصير، لذا هددهم الله بقوله: إن الله يحكم بين أهل الأديان يوم القيامة، ويفصل في خلافاتهم، ويجزي كل عامل بعمله، فيدخل الموحدين الجنة، ويُدخل المشركين النار.

قال ابن عباس: أنزلت هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ في

ثلاثة أحياء: عامر وكنانة وبني سلمة، كانوا يعبدون الأوثان، ويقولون: الملائكة بناته، فقالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى.

ثم أخبر الله تعالى بما معناه: إن الله لا يهدي الكاذب الكفَّار في حال كذبه وكفره، وعناده وإعراضه ومبالغته في الكفر والجحود، ولا يوفقه للاهتداء إلى الحق، فهو كاذب مفترٍ على الله، في زعمه أن لله ولداً، وأن تلك المعبودات الباطلة تشفع لعابديها، وتقربهم إلى الله تعالى.

ثم رد الله تعالى على زعم المشركين اتخاذ ولد لله، بقوله فيما معناه: لو شاء الله اتخاذ ولد، وهو لا يحتاج لذلك، لاختار من جملة خلقه موجوداته ومحدثاته ما يشاء أن يختاره، ولكان الأمر على خلاف ما يزعمون، فيختار أكمل الأولاد وهم الأبناء، لا البنات كما زعموا، والواقع أنه لا موجود سوى الله، ولا أحد غير الله إلا وهو مخلوق لله، ولا يصح أن يكون المخلوق ولداً للخالق. وقوله: ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾ أي من موجوداته ومحدثاته.

ثم نزّه الله تعالى نفسه تنزيهاً مطلقاً عن جميع الشركاء، فأخبر بقوله: تنزه الله وتقدس عن أن يكون له ولد، فإنه الإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي يفتقر إليه كل شيء، والذي قهر الأشياء والمخلوقات كلها، فدانت لعظمته، وخضعت لسلطانه وهيبته.

عظمة القدرة الإلهية

في مناسبات مختلفة، يورد الله تعالى البراهين والأدلة الحسية القطعية على وحدانيته، وقدرته، واستغنائه عن مخلوقاته، ليقتنع اللادينيون من الملاحدة والمشركين بأن الله تعالى هو وحده الإلهُ الحق، وأنه القادرُ على كل شيء، وأنه

مستغن عن جميع مخلوقاته وموجوداته، وتلك الأدلة والبراهين محسوسة مشاهدة، منها خلق السماوات والأرضين وما فيهما من العوالم، وخلق الإنسان من نفس واحدة، وخلق الأنواع الثمانية من الأنعام، وهذه آي كريمة تعبر بجلاء واضح عن هذه الموجودات:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ[1] يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ ۝٥ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ[2] ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾ [الزمر: ٣٩/ ٥-٧].

هذه أدلة ثلاثة على وحدانية الله وقدرته، في كل دليل منها ثلاثة أدلة:

الدليل الأول- من عالم السماء والأرض: أبدع الله تعالى عالم السماء والأرض إبداعاً بالواجب الواقع موقعه، الجامع للمصالح، فليس في هذا الخلق باطل وعبث، من غير استعانة بأحد، فهو وحده الإله الموجود الذي لا شريك له ولا نظير، التامُّ القدرة، الكامل الاستغناء عن غيره.

يلف الليل على النهار، ويلف النهار على الليل أو يولج أحدهما في الآخر، ويعيد من هذا على هذا، بنسب متفاوتة تتفق مع أحوال الزيادة والنقصان، دون الاستمرار

(١) أي بما يتفق مع الواجب، القائم على المصالح، الواقع موقعه المناسب. (٢) أي نزل الأمر بخلقها وإيجادها من عند الله، والعادة تقضي بأن نعم الله ورحمته وأمطاره هي من السماء، فعبر عن خلقها بالإنزال.

على مقدار واحد، وهو دليل على كروية الأرض، لأن التكوير: اللف على الجسم المستدير، وعلى دوران الأرض حول نفسها مرة ثانية، لأن تعاقب الليل والنهار لا يتم من غير دوران. ويجعل الله الشمس والقمر مذللين لأمره بالطلوع والغروب، يسير كل منهما في فلكه إلى منتهى معيَّن، وإلى وقت محدد في علم الله تعالى وهو انتهاء الدنيا وقيام القيامة، أو انتهاء دورة القمر كل شهر، ودورة الشمس كل سنة. ألا إن هذا التدبير والخلق من إله غالب قادر، ساتر لذنوب عباده بالمغفرة.

والدليل الثاني- من خلق الإنسان والأنعام، فإنه سبحانه خلقكم أيها الناس على اختلاف أجناسكم وألسنتكم وألوانكم من نفس واحدة، هي آدم عليه السلام، ثم جعل حواء من جنسه أو من طينته، أو خلقها من ضلعه-ضلع آدم القصير، ثم تكاثر الخلق منهما.

وأمر الله تعالى بخلق أو إيجاد ثمانية أصناف من الأنعام: وهي الإبل والبقر والغنم والمعز، جاعلاً من كل صنف ذكراً وأنثى، ويبتدئ الله خلق الناس في بطون الأمهات في مراحل متدرجة من الخلق والإبداع، حيث يكون بدء تكون الجنين من نطفة ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم تتكون العظام، ثم تُكْسَى باللحم والعروق والأعصاب. ومراحل الخلق هذه في ظلمات ثلاث: هي ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة والأغشية. هذا الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما، وخلق الإنسان: هو الرب المربي لكم، الذي له الملك المطلق في الدنيا والآخرة، وهو الإله الواحد الذي لا إله غيره، فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره؟!

وثمرة هذه العبادة تعود للناس، فإن تكفروا بالله أيها المشركون، بعد توافر هذه الأدلة على وجود الله وتوحيده وقدرته، فإن الله هو الغني عما سواه من المخلوقات، ويغضب الله من كفر بعض عباده، ويرضى ويحب شكرهم على نعمه وآلائه، ويثيبهم

به خيراً، أي يقبله منهم. والشكر الحقيقي يتضمن الإيمان. وبعبارة أخرى: لا يقع الكفر إلا بإرادة الله تعالى، إلا أنه بعد وقوعه لا يرضاه الله ديناً لعباده. واستغناء الله عن خلقه هو الدليل الثالث على قدرته.

قال ابن عباس عن هذه الآية: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ . .﴾ هذه الآية مخاطبة للكفار الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم. وكلمة ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ هم المؤمنون. ويحتمل أن تكون الآية مخاطبة لجميع الناس، لأن الله غني عن جميع الناس.

والمبدأ في المسؤولية أمام الله: إنما هو المسؤولية الشخصية أو الفردية، فلا تحمل نفس إثم أو ذنب نفس أخرى، والوزر: الثقل، وإنما كل إنسان مطالب بأمر نفسه، من خير أو شر. والجزاء على قدر العمل، فإن مصيركم جميعاً أيها الخلائق إلى ربكم يوم القيامة، فيخبركم بأعمالكم من خير أو شر، إنه سبحانه وتعالى خبير بما تخفيه النفوس من أسرار، فلا تخفى على الله خافية.

وهذا خبر يتضمن الحض على أن ينظر كل أحد في خاصة أمره وما ينوبه في ذاته، كما يتضمن أيضاً أن مرجعهم في الآخرة إلى ربهم، أي إلى ثوابه أو عقابه، فَيُطْلع كل أحد على أعماله، لأنه تعالى المطلع على نيات الصدور وسرائر الأفئدة.

الإنسان في وقت المحنة

الإنسان في منهاج حياته لا يسير على منوال واحد، ما دام مستكبراً معانداً مكابراً الحقائق، فتراه يصر على الكفر بالله بفلسفات بالية وعقائد موروثة ساذجة، حتى إذا ألم به ضرر، أو تعرض لأزمة أو محنة، بادر إلى الاستعانة بالله تعالى، والتضرع إليه، إذ لا يجد في أصائل نفسه طريقاً للفرج إلا الله القوي القادر الذي يكشف الضر، ويدفع الشر، وهذا دليل على تناقض الكافر، يضرع إلى الله تعالى وقت الشدة،

ويهمله ويعرض عنه وقت الرخاء، أما المؤمن فمنهاجه سواء، إن أصابه سراء ونعمة شكر، وإن تعرض لضراء ونقمة صبر، فكان خيراً له في كلا الحالين، مما يدل على ثبات إيمانه، وصلابة يقينه وتمسّكه بالمبدأ الذي لا يحيد عنه. قال الله تعالى واصفاً الإنسان:

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا[1] إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ[2] نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا[3] لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ[4] هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر: ٣٩/٨-٩].

هذه موازنة واضحة بين الكافر والمؤمن في وقت الرخاء والشدة، أما الكافر فهو متناقض مضطرب، إذا أصابته شدة من مرض أو فقر أو خوف، تضرع إلى ربه، تائباً إليه، مستغيثاً به لتفريج كربه، ثم إذا أنعم الله عليه بنعمة أو خير، وصار في حال رخاء، نسي دعاء الله في حال الضرر، أو نسي الله سبحانه وتعالى مطلقاً، ورجع إلى كفره، وجعل الشركاء والنظراء أو الأمثال من الأصنام وغيرها شركاء لله، يعبدها، ليؤول أمره إلى الوقوع في دائرة الضلال، وإضلال غيره عن جادة الحق، وطريق الإسلام والتوحيد.

والإنسان في هذه الآية: يراد به الكافر، بدلالة ما وصفه به آخراً من اتخاذ الأنداد لله تعالى، ولقوله سبحانه موبخاً ومهدداً إياه: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾. وتخويل النعمة: إما في كشف الضر المذكور، أو يريد أي نعمة كانت، واللفظ يشمل الأمرين.

ثم أمر الله تعالى نبيه أن يقول للكفار -على سبيل التهديد- قولاً، يخاطب به

---

(١) أي تائباً مقارباً مراجعاً بصيرته. (٢) خوله: ملّكه وحكمه فيها ابتداء منه، لا مجازاة. (٣) الأنداد: الأمثال التي تضادّ وتزاحم ويعارض بعضها بعضاً. (٤) الأظهر أن الألف في (أمّن) ألف تقرير واستفهام.

واحداً واحداً منهم: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾ أي تلذّذ به، واصنع ما شئت مدة قليلة: وهي مدة عُمْر ذلك المخاطب، فإنك في النهاية يوم القيامة مصيرك أن تكون من أصحاب النار، أي من سكانها والمخلَّدين فيها. وهذا أمر يراد به التهديد.

ثم ذكر الله تعالى على جهة المقارنة حال المؤمن المخلص، والمعنى: أذلك القانت خير أم هذا المذكور الذي يتمتع بكفره قليلاً، وهو من أصحاب النار؟ الجواب واضح وهو أن المؤمن خير. والقانت: الطائع الخاشع، المصلي لله في أوقات الليل، ساجداً خاضعاً لربه، وفي حال قيامه، يخاف الآخرة، ويرجو رحمة ربه، جامعاً بين الخوف والرجاء، وتلك هي حقيقة العبادة الكاملة، التي يفوز بها صاحبها. وهذا دليل على فضل قيام الليل وأنه أفضل من قيام النهار.

وكما لا يستوي القانت المطيع الخاشع، والكافر الجاحد، لا يستوي أهل العلم والجهل، إنما يتعظ بآيات الله ويتدبرها أهل العقول السليمة والأفكار السديدة، لا الجهلاء الأغبياء، الذين لا يقدِّرون الأمور حق قدرها، ولا يتأملون في مصير المستقبل.

نزلت هذه الآية ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ﴾ إما في عثمان بن عفان أو في عمار بن ياسر، أو ابن مسعود أو سالم مولى أبي حذيفة.

وفي هذه الآية دلالة واضحة على أن كمال الإنسان محصور في هذين المقصودين: العلم والعمل، كما قال أبو حيان في البحر المحيط، فكما لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، كذلك لا يستوي المطيع والعاصي، والمراد بالعلم هنا: ما أدى إلى معرفة الله تعالى، ونجاة العبد من سخطه.

وهذه المقارنة في معنى مقارنة آتية في السورة نفسها (سورة الزمَر) في قول الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٢٢].

والقنوت يطلق على الدعاء، والطاعة، أخرج الإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كل حرف من القرآن يذكر فيه القنوت، فهو الطاعة».

وعن ابن عباس قال: «من أحب أن يهوِّن الله عليه الوقوف يوم القيامة، فليُنزه الله في سواد الليل ساجداً وقائماً».

طريق الخلاص في الآخرة

إن طريق الخلاص والنجاة في عالم القيامة محصور في أمور ثلاثة: تقوى الله وطاعته، وإخلاص الدين لله، واجتناب الطواغيت، أي الأوثان وكل ما عُبد من دون الله، فإذا ملأ الإنسان قلبه خوفاً من الله تعالى، وبادر لأداء الفرائض والواجبات، وأخلص النية والعمل لله، واجتنب كل ألوان الشرك والوثنية، كان ناجياً مطمئناً، مستقراً في جنان الخلد، عند مليك مقتدر، وهذا وعد إلهي منجز، وسبيل متعين للنجاة، قال الله تعالى مبيناً هذا التوجه الصحيح وأصوله:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ[1] وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ[2] وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ[3] أَن يَعْبُدُوهَا

(١) الحسنة في الآخرة: الجنة والنعيم، وفي الدنيا: العافية والطهور وولاية الله تعالى أي نصرته، والمراد هنا الحسنة الأخروية. (٢) الظلل: طبقات النار. (٣) الطاغوت: كل ما عُبد من دون الله.

وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ(١) مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ(٢) ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ [الزمر: ٣٩/ ١٠-٢٠].

المعنى: قل أيها النبي: يا عباد الله الذين آمنوا بالله رباً وبالإسلام ديناً، اتقوا عذاب ربكم: باتباع أوامره، واجتناب نواهيه، فللمحسنين أعمالَهم حسنةٌ في الدنيا: وهي الصحة والعافية والنصر والسلطان، وإذا لم تتمكنوا من ممارسة مقتضيات التقوى في بلد، فهاجروا إلى بلد آخر، حيث تمكن طاعة الله، فإن أرض الله واسعة غير ضيقة، فسيحةٌ غير مغلقة، إنما يوفي الله الصابرين في عملهم ثوابهم بغير مكيال ولا وزن، وبما لا يقدر على حسابه حاصر وحاسب، وهذا حض على الهجرة. وهذا وعد من الله تبارك وتعالى على الصبر على المكاره، والخروج عن الوطن، ونصرة الدين، وجميع الطاعات، ومفاد الوعد أن الأجر يوفّى بغير حساب، أي بغير حصر ولا عدّ، بل جزافاً، وهذه استعارة للكثرة التي لا تُحصى، وهذا رأي جمهور المفسرين . يروى أن هذه الآية نزلت في جعفر بن أبي طالب وأصحابه حين عزموا على الهجرة إلى أرض الحبشة.

ثم أمر الله تعالى بعد الأمر بالتقوى بالإخلاص في العبادة والطاعة، فقل أيها النبي: إنما أمرت أن أعبد الله وحده، بإخلاص خال من الشرك والرياء وغير ذلك، وأمرت بأن أكون أول المسلمين المنقادين لله الخاضعين له، من هذه الأمة، في مخالفة دين الآباء الوثنيين.

وقل للمشركين الوثنيين: إني أخشى إن عصيت ربي بترك التقوى وإخلاص العبادة

(١) الغرفة: الحجرة . (٢) وعد الله: منصوب على المصدر تقديره: وعدكم الله وعداً .

لله وتوحيده: أن أتعرض لعذاب شديد الأهوال في يوم القيامة. وأمرني ربي أن أعبده وحده لا شريك له، وأن يكون تعبّدي خالصاً لله غير مشوب بشرك ولا رياء ولا غيرهما.

ثم قال لهم على سبيل التهديد والوعيد: اعبدوا ما أردتم عبادته من غير الله، من الأوثان والأصنام، فسوف تجازون بعملكم.

ثم قل لهم أيها الرسول: إنما أهل الخسارة التامة: هم الذين خسروا أنفسهم بالضلالة والشرك والمعاصي، وخسروا أتباعهم من الأهل حيث أوقعوهم في الضلال، وعرّضوهم للعذاب الدائم يوم القيامة، وذلك هو الخسران الواضح، ولا خسران أعظم منه.

ونوع الخسران: أن لهم طبقات متراكمة من النار الملتهبة، من فوقهم ومن تحتهم، ومن كل جانب، ذلك العذاب الشديد الذي يخبر به الله خبراً كائناً لا محالة، ليرهب به عباده، فيا عبادي خافوا بأسي وعذابي واتقوا غضبي. ووعد المؤمنين: هو أن الذين تجنبوا عبادة الأوثان والشيطان وكل ماعُبد من دون، ورجعوا إلى الله، لهم البشارة بالثواب الجزيل: وهو الجنة، فبشر أيها الرسول بالجنة عبادي المؤمنين الذين يستمعون القول الحق من كتاب الله، وسنة رسوله، فيفهمونه، فيتبعون أحسن ما يؤمرون به، ويعملون بما فيه. أولئك المتصفون بهذه الصفة هم الموفقون للصواب في الدنيا والآخرة، وهم ذوو العقول الصحيحة والآراء السديدة.

وآية ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ نزلت في رجل من الأنصار أعتق سبعة مماليك، ليعتق نفسه من أبواب النار السبعة، وآية: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ نزلت في ثلاثة نفر موحدين الله في الجاهلية، وهم زيد بن عمرو بن نفيل، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي.

ثم واسى الله رسوله على إعراضهم عن دعوته بما معناه: إنك لا تقدر على هداية

من وجب عليه قرار العذاب، ولا تتمكن من إنقاذه من النار. لكن أولئك الذين اتقوا عذاب ربهم بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، لهم في الجنة غرف مبنية محكمة البناء، تجري من تحت تلك الغرف والقصور أنهار عذبة الماء، وذلك وعد محقق من الله تنفيذه، ووعد الله حق ثابت، لانقض فيه ولا رجوع عنه.

حال الدنيا الفانية وتوجيه الهداية

رغّب القرآن الكريم بالآخرة لخلودها ونعيمها التام، ونفّر من الدنيا لفَنَائها وسرعة زوالها، فهي أشبه بزرع اخْضرَّ بماء السماء، ثم اصفر وتهشم، وأوضح القرآن سبيل الهداية للدين الحق والنور الإسلامي، فمن استضاء قلبه بالإسلام، فهو على نور من ربه، ومن استنار بتعاليم القرآن، ولان جِلْده وقَلْبه لذكر الله تعالى، فهو على طريق مستقيم. ومن أعرض عن هدي القرآن، وانغمس في المعاصي والمنكرات، فقد عرّض نفسه لسوء العذاب، واستحقاق الخزي في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى واصفاً أحوال الدنيا وحال انشراح الصدر بالقرآن:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ[1] لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ

(١) الويل: كلمة عذاب أو واد في جهنم.

وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ[1] فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ [الزمر: ٣٩/ ٢١-٢٦].

المعنى: ألم تشاهد أيها النبي وكل بشر أن الله أنزل من السحاب مطراً، فأدخله وأسكنه في الأرض، ثم أخرج منها عيوناً متدفقة بالماء، ثم تسقى به الأرض، فيُخرج بذلك الماء من الأرض زرعاً مختلفاً أنواعه، من الحنطة والشعير والحبوب الأخرى والخضروات وغيرها، ثم ييبس ويجف، فتراه مصفراً بعد خضرته، ثم يتكسر ويتهشم، إن في ذلك المذكور من إنزال المطر وإخراج الزرع به موعظة ينتفع بها أهل العقول الصحيحة.

هذا مثال لحال الدنيا الفانية، متاعها زائل، وبهجتها ذاهبة، وكل مفكر تفكيراً صحيحاً يدرك أن سرعة زوال الدنيا يدل على قصر عمر الإنسان، وأنه مهما طال، لا بد له من الانتهاء، كما جاء في آية أخرى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٨٨].

ولا يكون الانتفاع بهذه المواعظ إلا إذا شرح الله الصدور للإسلام، ونوَّر القلوب بالإيمان، ولا يستوي هذا ومن حُجب قلبه عن الأنوار الإلهية. أفمن وسَّع الله صدره، فقبله واهتدى بهديه، فأصبح مستنير القلب بنور الله، وهو نور المعرفة، والاهتداء إلى الحق، كمن قسا قلبه لسوء اختياره وغفلته وجهالته؟! أي لا يستوي المهتدي للإسلام والحق، ومن هو قاسي القلب، البعيد عن الحق، فالعذاب الشديد لمن تحجرت قلوبهم عند سماع ذكر الله، ولم تخشع لصوت الحق الإلهي، أولئك قساة

(١) الخزي: الذل والهوان.

القلوب في ضلال واضح عن الحق، ولا يفهم الكلام إلا بمحذوف يدل عليه الظاهر، تقديره كالقاسي القلب والمعرض عن ذكر الله.

ذكر الواحدي في أسباب النزول: أن هذه الآية نزلت في علي وحمزة رضي الله عنهما، وأبي لهب وابنه، وهما اللذان كانا من القاسية قلوبهم.

و﴿شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ﴾ استعارة لتحصيله للنظر الجيد والإيمان بالله تعالى. و﴿ٱلنُّورِ﴾: هداية الله، وهي أشبه شيء بالضوء. قال ابن مسعود رضي الله عنه فيما أخرجه ابن مردويه: قلنا: يا رسول الله، كيف انشراح الصدر؟ قال: إذا دخل النور القلب انشرح الصدر، قلنا: وما علامة ذلك؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والتأهب للموت». والقسوة: شدة القلب.

ثم وصف الله القرآن الذي يشرح الصدر بأن الله نزل أحسن الأحاديث وهو القرآن، لما فيه من الخيرات والبركات والمنافع العامة والخاصة، وهو كتاب يشبه بعضه بعضاً، في جمال النظم وحسن الإحكام والإعجاز، وقوّة المباني والمعاني، وبلوغ أرقى درجات البلاغة، وتثنى فيه القصص، وتتكرر فيه المواعظ والأحكام من أوامر ونواهٍ، ووعد ووعيد، ويثنى في التلاوة، وتقشعر من عظمة آياته وأمثاله ومواعظه جلود الخائفين من الله، ثم تسكن وتطمئن الجلود والقلوب عند سماع آيات الرحمة، ذلك القرآن الذي هذه صفته هو هداية الله، يهدي به من يشاء هدايته وتوفيقه للإيمان، ومن يخذله الله عن الإيمان بالقرآن من الفسّاق والعصاة والفجار، فلا مرشد له. عن ابن عباس: أن قوماً من الصحابة قالوا: يا رسول الله، حدثنا بأحاديث حسان وبأخبار الدهر، فنزل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾.

وسبب التمييز بين المهتدي والضال يظهر في هذه المقارنة، وهي: أفمن يتقحّم نار جهنم، فلا يتمكن من اتقاء العذاب الشديد يوم القيامة، كمن هو آمنٌ لا يتعرض

لشيء من المخاوف والمكروهات؟ وحين يقال للكافرين: ذوقوا جزاء ظلمكم وكسبكم من المعاصي في الدنيا. لقد كذب بعض الأقوام السابقين لقومك رسلهم، فأتاهم العذاب من جهة لا يترقبون إتيان العذاب منها، فأذاقهم الله الذل والهوان في الدنيا بما أنزل من العذاب والنكال، كالخسف والمسخ والقتل، والأسر، ولعذاب الآخرة أشد وأعظم مما أصابهم في الدنيا.

ضرب الأمثال في القرآن

من حكمة الله تعالى ورحمته وفضله: إيراد الأمثال والأشباه الحسية لتوضيح المجملات، وتقريب البعيد، وإقناع الناس، تخويفاً وتحذيراً، وهذه إحدى خواص القرآن الكريم، ومن خواصه أيضاً أنه قرآن متلو إلى يوم القيامة، وأنه عربي اللسان، وغير ذي عوج، أي إنه بريء وبعيد عن التناقض والتعارض. وفيه مثل عجيب للمؤمن الموحد، والمشرك، في أهم الأمور وأعظمها خطراً: وهو التوحيد، يدل على فساد مذهب المشركين، وبُعْدهم عن المنطق، فهم إن كانوا يرفضون الشركة في عبد مملوك لهم، فكيف يجعلون لله الشريك؟! قال الله تعالى موضحاً هذه الخواص:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ(١) وَرَجُلًا سَلَمًا(٢) لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٢٧-٣١].

ضرب الله الأمثال المجملة للناس في القرآن الكريم، والمراد بضرب المثل: تطبيق

(١) أي متنازعون مختلفون لسوء طباعهم وأخلاقهم. (٢) أي سالماً خالصاً.

حالة غريبة على حالة تشبهها، والمثل يقرِّب المعنى إلى الذهن، وذلك لعل الناس يتعظون ويعتبرون. ثم وصف الله القرآن بصفات ثلاث: هي كونه قرآناً، أي مقروءاً متلواً في المحاريب إلى يوم القيامة، وكونه عربياً بلسان عربي مبين، أعجز الفصحاء والبلغاء عن معارضته، وكونه غير ذي عوج، أي براءته وبعده عن التناقض والتضاد. وقدّم الله تعالى التذكر على الاتقاء، لأن من اتعظ بشيء وفهم معناه، أقبل على ساحة التقوى: بالتزام المأمورات واجتناب المنهيات والاحتراز من المعاصي والمنكرات.

ثم مثَّل الله تعالى الكافر العابد للأوثان والشياطين بعبدٍ لرجال عِدّة، في أخلاقهم شكاسة ونقص وعَدَم مسامحة، فهم لذلك يعذِّبون هذا العبد، لأنهم يتضايقون في أوقاتهم، ويضايقون هذا العبد في كثرة العمل، فهو أبداً دائب متعب، فكذلك عابد الأوثان، أي ضرب الله مثلاً للمشرك في صنعه، لا في معبوده، الذي يعبد أكثر من إله، بحالة رجل عبد مملوك يملكه عدد من الرجال، مختلفون فيما بينهم، متنازعون في ذلك العبد المشترك بينهم، متعاسرون، لسوء أخلاقهم وطباعهم، كل له رأي وحاجة، فإذا طلب كل واحد من السادة من هذا العبد شيئاً أو حاجة، فماذا يفعل، وكيف يُرضي جميع الشركاء؟ كذلك المشرك في عبادته آلهة متعددة لا يتمكن من إرضاء جميع تلك الآلهة، فهو معذب الفكر بها، ومتى أرضى صنماً منها بالذبح له في زعمه، تفكّر فيما يصنع مع الآخر، فهو أبداً في تعب وضلال.

ومثَّل الله تعالى المؤمن بالله تبارك وتعالى وحده، بعبد لرجل واحد يكلفه شغله، فهو يعمله على تؤدة، وقد ساس مولاه، فالمولى يغفر زلَّته، ويشكره على إجادة عمله، أي ضرب الله مثلاً آخر للمؤمن بحالة رجل آخر مملوك لشخص واحد، لا يشاركه فيه غيره، فإذا طلب شيئاً منه لبَّاه دون ارتباك ولا حيرة، وهذا كالمسلم الذي لا يعبد إلا الله، ولا يسعى لإرضاء غير ربه، فهل يكون في طمأنينة أو في حيرة؟.

الحمد لله على إقامة الحجة على عبدة الأوثان، وعلى أن الحمد لله لا لغيره، وعلى التوفيق للإسلام والحق، بل أكثر الناس لا يعلمون هذا الفرق، فيشركون مع الله غيره. وبما أن أكثر الناس جاهلون بالحق، لا ينتفعون بهذا المثل، هدد الله تعالى بالموت، فمصير جميع الخلائق إلى الله، وهو الذي يفصل بينهم في مظالمهم، والموت عاقبة كل حي، فإنك أيها النبي ميت، وهم سيموتون، ثم يكون التقاضي عند الله تعالى فيما اختلفتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك، فينجي الله المؤمنين الموحدين، ويعذِّب المشركين المكذبين.

والتخاصم في الآخرة ليس خاصاً بين المؤمنين والكافرين، وإنما هو حادث بين كل متنازعين في الدنيا، فإنه تتكرر المنازعة في الآخرة. وهو دليل على أن النبي محمداً ﷺ سيخاصم قومه، ويحتج عليهم بأنه بلّغهم الرسالة، وأدى الأمانة، وأنذرهم وبشرهم، وهم يخاصمونه ويعتذرون بما لا معنى له، وهذا توعد للمشركين: بأنهم سيتخاصمون يوم القيامة في ردهم شريعة الله، وتكذيبهم لرسول الله ﷺ.

أخرج الإمام أحمد عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول الخصمين يوم القيامة: جاران».

وعيد المكذبين ووعد المصدقين

ليس هناك بعد الشرك بالله أسوأ من الكذب، وإن الذين يفترون الكذب لا يفلحون، والكذب أخس صفة تؤدي إلى الطعن بالرجولة، وتدل على فقد الثقة بالنفس، وضعف الإنسان، وتورطه بالنفاق، لذا كان أسوأُ اعتقاد المشركين تكذيبَ الله تعالى بإثبات ولد له أو شريك، وتكذيبَ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بعد إثبات صدقه في نبوته، بالأدلة القاطعة والمعجزات الباهرة، فاستحقوا الوعيد في نار

جهنم، ويقابل ذلك وعد الصادقين المصدقين بالله ورسوله بمنحهم عند ربهم كل ما يشاؤون من الجنة والنعيم والرضوان، وإثابتهم أفضل الثواب، ليقترن الوعد بالوعيد، وتظهر التفرقة بين الحالين، قال الله تعالى مبيناً هذا التفاوت:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى(١) لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ(٢) وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٣٢-٣٧].

من أقبح خصال المشركين: أنهم يكذبون الله ورسوله، فلا أحد أظلم ممن كذب على الله، فزعم أن له ولداً أو شريكاً، أو صاحبة، وحرَّم وحلل من غير أمر الله، وكذّب بما جاء به رسول الله ﷺ من دعوة الناس إلى التوحيد، والأمر بإقامة فرائض الشرع، والنهي عن المحرّمات، والإخبار بالبعث والنشور والحساب والجزاء.

وهؤلاء في الواقع يستحقون أشد العذاب، أليس في نار جهنم الواسعة مقام ومستقر لهؤلاء الكافرين؟! وفيه دلالة على علة كذبهم وتكذيبهم، وهو الكفر.

وفي مقابل هذا الوعيد: يأتي الوعد للمؤمنين، فالذي جاء بالصدق والقول الحق: وهو رسول الله ﷺ، والذين صدقوا به، وآمنوا بأنه رسول من عند الله، وهم أتباعه المؤمنون، أولئك لا غيرهم هم الذين اتقوا الله وخافوه، وتجنبوا الشرك وعبادة الأوثان.

---

(١) أي مقام لهم. (٢) أي يكفيه وعيد المشركين.

وثواب هؤلاء الصادقين المصدقين: أن لهم ما يطلبون عند ربهم في جنان الخلد، من رفع الدرجات، ودفع الضرر، وتكفير السيئات، وذلك جزاء الذين أحسنوا في أعمالهم.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وجماعة: الذي جاء بالصدق هو محمد ﷺ، والذي صدّق به: هو أبو بكر رضي الله عنه. وقال قتادة وابن زيد، الذي جاء بالصدق: هو محمد ﷺ، والذي صدّق به هم المؤمنون. وقال مجاهد: هم أهل القرآن.

وعلة هذا الجزاء: تكفير السيئات، والمجازاة بأحسن أفعالهم، أي وعدهم الله تعالى بالجنان ونعمها من أجل تكفير سيئ عملهم، وإثابتهم بمحاسن أعمالهم، وإذا غفر الله لهم أسوأ أعمالهم، غفر لهم ما دونه بطريق أولى. والحسن الذي يعملونه: هو الأحسن عند الله تعالى.

وكذلك يكفي الله المؤمنين في الدنيا ما أهمهم، ويمنع عنهم ما يخيفهم، أليس الله يكفي من عَبَده وتوكل عليه؟ فيدفع عنه الويلات والمصائب، ويحقق له جميع رغائبه. والمراد بعبده: النبي ﷺ وجميع عباد الله. وهذا تقوية لنفس النبي ﷺ، لأن كفار قريش كانوا خوّفوه من الأصنام، وقالوا: أنت تسبّها وتخاف أن تصيبك بجنون أو علة، فنزلت الآية في ذلك. أي إن المشركين يخوّفونك أيها النبي بالذي يعبدون من دون الله. وروي أن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى كسر صنم العُزّى، فقال سادنها[1]: يا خالد، إني أخاف عليك منها، فلها قوّةٌ لا يقوم لها شيء، فأخذ خالد الفأس، فهشم به وجهها وانصرف[2].

ثم قرر الله تعالى: أن الهداية والإضلال من عنده بالخلْق والاختراع، وأن ما أراد

(١) خادمها والقائم على حمايتها. (٢) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن جرير عن قتادة.

من ذلك لا رادّ له، ثم توعد الله المشركين بعزته وانتقامه، فكان ذلك والانتقام يوم بدر وما بعده.

أي إن من حقَّ عليه القضاء بضلاله لسوئه وعناده ومكابرته، ماله من هاد يهديه إلى الرشد، و يخرجه من الضلالة، ومن يوفقه الله إلى السعادة والإيمان لاستعداده لهما، فلا مضل له أبداً. أليس الله بغالب لكل شيء، قاهرٍ له، ينتقم من عصاته بعذاب شديد؟ فهو سبحانه منيع الجانب، قوي البطش، شديد الانتقام من أعدائه المشركين المكذبين رسوله وأمينه عليه الصلاة والسلام.

مناقشة عبدة الأصنام

الإسلام دعوة الإصلاح الكبرى الشاملة لجميع أبناء البشر، لذا كان حريصاً بصراحته ورحمته واعتماده على العقل الحر والمنطق الرشيد، هداية الناس جميعاً حتى الوثنيين البدائيين إلى الدين الحق والعقيدة الصحيحة القائمة على توحيد الله عز وجل، وإبطال عبادة كل ما لا خير فيه ولا نفع، ولا دليل من الواقع عليه، واعتمد القرآن الكريم في مناقشة عبدة الأصنام على أساسين واضحين:

الأول- أن المشركين لو سئلوا عن خالق السماوات والأرض لأقروا بأنه الله تعالى.

الثاني- أن أصنامهم التي يعبدونها عاجزة عن تحقيق الخير أو دفع الشر.

روي عن مقاتل: أن النبي ﷺ سألهم، فسكتوا، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ وقال بعض المشركين: لا تدفع هذه الأصنام شيئاً قدَّره الله، ولكنها تشفع، فنزلت هذه الآيات الآتية:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ[1] إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الزمر: ٣٩/٣٨-٤٠].

هذا ابتداء احتجاج على المشركين بحجة حاسمة، مفادها أن القرآن الكريم انتزع منهم الإقرار بالخالق المخترع الموجد: وهو الله عز وجل، وحينئذ لم يبق لهم في الأصنام غرض إلا أن يقولوا: إنها تضر وتنفع.

فقيل لهم: إذا أراد الله أمراً، هل للأصنام قدرة على نقضه؟

والجواب واضح: وهو أنه لا قدرة للأصنام على شيء من ذلك.

وتقرير الأمرين أو الأصلين يتبين في معنى هذه الآيات.

لئن سألت أيها النبي أو أي إنسان المشركين عن خالق السماوات والأرض، لأقروا على الفور وبصراحة: بأنه هو الله الخالق، مع أنهم يعبدون الأصنام.

فإذا أقررتم بأن الله تعالى خلق الأشياء كلها، فأخبروني عن هذه الآلهة المزعومة: إن أراد الله بأحد شيئاً من الضُّر، أي الشدة والبلاء، هل تستطيع هذه الأصنام أن تمنع ما أراده الله من شدة، وإن أراد الله بأحد منحه شيئاً من الخير والنعمة والفضل والإحسان، هل تقدر هذه الأصنام حجب رحمة الله عنه؟ وإذا كانت لا تمنع شراً، ولا تجلب نفعاً، فكيف تجوز عبادتها وتعظيمها؟!

ثم أمر الله تعالى نبيه أن يصدع بالاتكال على الله تعالى، وأنه حسبه وكافيه من كل

(١) أي على ما رأيتموه متمكناً لكم، وعلى حالاتكم التي استقر رأيكم عليها.

شيء ومن كل ناصر، وأنه هو وحده لا غيره الذي يجب أن يتوكل عليه المتوكلون، ويفوض إليه جميعَ الأمور المؤمنون، ويلجأ إلى الاستعانة به كل البشر أجمعون.

ثم أمر الله نبيه بأن يتوعد المشركين في قوله: ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: قل أيها النبي: يا قوم، اعملوا ماشئتم، وافعلوا ما أنتم عليه من هذه الحال والطريقة التي أنتم عليها، من معاداة رسالتي، والاعتماد على القوة والشدة والثروة، واجتهدوا في استعمال مختلف أنواع المكر والكيد، فإني على حالتي ومنهجي وطريقتي التي أدعو بها إلى توحيد الله، ونشر دينه في الآفاق، ولدى جميع الناس، فسوف تعلمون وبال ذلك وعاقبته الوخيمة، وتأملوا فيمن سيأتيه عذاب يذله ويهينه في الدنيا، بعد تفاخره وعناده واستكباره، فيظهر حينئذ المبطل من المحق، وسيتعرض لعذاب دائم مستمر، لا محيد عنه في الآخرة: وهو عذاب النار يوم القيامة.

وقوله سبحانه: ﴿اعْمَلُوا﴾ لفظ أمر بمعنى الوعيد والتهديد، والعذاب المخزي: هو عذاب الدنيا يوم بدر وغيره من الهزائم المنكرة التي تلحق بالمشركين، والعذاب المقيم: هو عذاب الآخرة.

إن النظرة العاجلة السريعة التي يتبين خطؤها عما قريب: هي التي تحمل أهل الشرك والكفر والضلال على البقاء على ما هم عليه، وإن النظرة المتأنية المعتمدة على المنطق السديد والعقل الرشيد هي التي تغيِّر المواقف، وتحوِّل أصحاب العقول السوية من طريق الغواية والانحراف إلى طريق الرشاد والاستقامة.

مظاهر القدرة الإلهية والوحدانية

مظاهر وحدانية الله تعالى وسلطانه ومقدرته الفائقة تتعدد في الكون والإنسان والحياة وما بعد الممات في عالم الآخرة، وأول المظاهر الكبرى للوحدانية والقدرة

الإلهية: إنزال القرآن الكريم على النبي محمد ﷺ وبيان علو مكانته واصطفاء ربه عز وجل له، ثم الإعلامُ بقدرة الله على قبض الأرواح بانتهاء آجالها، وملكهُ الشفاعة التي لا تتم إلا بأمره وإذنه. وهناك مظاهر ثلاثة متممة أخرى، وهي كون الله مبدع السماوات والأرض، واتصافه بعلم الغيب والشهادة، علم الاخرة والدنيا المشاهدة، وإظهار أنواع من العقاب غير معروفة ولا محسوبة، وبيان آثار السيئات والمعاصي التي يرتكبها الناس، قال الله تعالى مبيناً ذلك:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٤١-٤٨].

المعنى: يقرر الله تعالى أنه أنزل القرآن الكريم بالحق، أي متضمناً الحق في أخباره وأحكامه، أو أنزله بالواجب من إنزاله وبالاستحقاق لذلك، لما فيه من مصلحة العالم وهداية الناس. وهذا بيان لإقامة الحجة على العباد، ولم يبق إلا اختيارهم وإقدامهم على الأخذ به، فمن عرف الحق وسلك طريقه واتبعه، فاهتداؤه ومعرفته

لخير نفسه، ومن حاد عن الحق وتنكر له، فضلاله على نفسه، ووباله على ذاته، وما أنت أيها الرسول بموكل على الناس أن يهتدوا ولا يمكنك حملهم على جادة الهداية، وإنما عليك إبلاغ الرسالة. ومن المعلوم أن إنزال القرآن هو أول مظاهر قدرة الله وفضله وتوحيده.

والمظهر الثاني: أن الله تعالى هو الحاكم المطلق على الناس بالموت، فهو الذي يقبض الأرواح من طريق الملائكة حين انتهاء آجال أصحابها، وهي الوفاة الكبرى، فيمسك تلك الأرواح، أي لا يردها إلى الجسد الذي كانت فيه، ويرسل روح النفس الأخرى التي نامت إلى أجسادها حين اليقظة، بأن يعيد إليها إحساسها، ويبقيها على قيد الحياة، إلى أجل معين: هو وقت الموت. إن في ذلك التوفي التام، وإرسال الروح مرة أخرى لعلامات باهرة على قدرة الله ووحدانيته، من قوم يتفكرون ويتأملون في ذلك. أما الروح فلا يعلم حقيقتها إلا الله، ولا سلطان عليها لأحد غير الله، لا بتحضير الأرواح أو التنويم المغناطيسي ولا بغير ذلك: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨٥].

بل اتخذ المشركون من دون الله آلهة شفعاء تشفع لهم عند الله؟ لا ينبغي لهم ذلك، وقل لهم أيها النبي للرد عليهم: كيف تتخذون تلك الأصنام شفعاء لكم، وهم لا يملكون شفاعة ولا غيرها، ولا يعقلون شيئاً من شفاعة ولا غيرها، ولا تدرك تلك الأصنام شفعاء لكم، وهم لا يملكون شفاعة ولا غيرها، ولا يعقلون شيئاً من شفاعة ولا غيرها، ولا تدرك تلك الأصنام أن الناس يعبدونها. وقل أيضاً يا نبي الله: إن الله تعالى هو مالك جميع أنواع الشفاعة، وليس لأحد منها شيء فالله هو مالك جميع السماوات والأرض وكل ما يحدث فيهما، ثم إليه مصائر جميع الناس بعد البعث، فيحاسبهم على جميع أعمالهم، وفي هذا تهديد ووعيد لمن يعتمد على غير الله في أي شيء.

ومن قبائح المشركين: إذا ذكر الله وحده، وأنه لا إله سواه، انقبضوا وانزعجوا،

لأنهم لا يؤمنون باليوم الآخر، وإذا ذكرت الأصنام كاللات والعزى، إذا هم يفرحون ويسرّون.

قال مجاهد: نزلت هذه الآية في قراءة النبي ﷺ سورة النجم عند الكعبة، وفرحهم عند ذكره الآلهة، أي عند قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النجم: ٥٣/١٩].

ثم رد الله تعالى عليهم بقوله: ادع الله أيها النبي فقل: يا خالق السماوات والأرض، ويا عالم الغيب والشهادة (ما غاب عن البشر وما شاهدوه) أنت تحكم بين عبادك في كل ما اختلفوا فيه. وهذا دليل على العلم التام لله عز وجل.

ثم توعد الله المشركين بأمور ثلاثة:

أولها: لو أن هؤلاء المشركين ملكوا جميع خزائن الأرض ومثلها معها، لجعلوا الكل فدية لأنفسهم من ذلك العذاب يوم القيامة.

وثانيها: وظهر لهم من أنواع العقاب والعذاب المهيأ لهم ما لم يكن في حسابهم ولا خطر في بالهم.

وثالثها: وظهر لهم جزاء وأثر سيئاتهم التي اكتسبوها في الدنيا، وأحاط بهم من العذاب ما كانوا يستهزئون به في دار الدنيا، ومن إنذارات النبي ﷺ.

سوء الطبع عند الإنسان

من قبائح طبائع المشركين والكافرين: تنكرهم للنعمة الإلهية حال الرخاء، ولجوؤهم إلى الله تعالى حين الشدة والبلاء، زاعمين بأن الإنقاذ والنعمة يحدثان بمهارتهم وجهدهم، مع أن الله تعالى وحده هو مصدر الخير والنعمة والرزق، وليس جمع الثروة بمهارة الإنسان وفطنته وخبرته، ولا ضعفها ولا قلتها بغبائه وخموله،

وإنما أمر الرزق بيد الله تعالى بشرط السعي والعمل، فقد يكون الجهد الكثير، ولا يحصل سوى الرزق القليل، وقد يكون العجز والضعف، ويسوق الله الرزق الوفير لصاحبه، على وفق مراد الله تعالى وحكمته، وهذا ما دوّنته الآيات الآتية:

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ[1] نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ[2] وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ[3] ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ[4] ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٤٩-٥٢].

إن طبع الإنسان غريب، فتراه إذا كان كافراً أو مشركاً، وأصابه ضرّ من فقر أو مرض أو غيرهما، تضرَّع إلى الله تعالى، واستعان به لكشف الضُّر عنه، حتى إذا منحه الله نعمة من صحة وعافية وسلامة أو ثروة ومنصب وجاه، أو غير ذلك، زعم أنه وصل لذلك بخبرته ومهارته بأوجه المكاسب والعمل، أو لأنه يستحق ذلك، والحقيقة أن الحياة بأوضاعها كلها ابتلاء وخبرة للناس وامتحان لهم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك، ولا يدركون أن كلاًّ من النعمة والنقمة اختبار وامتحان، ففي حال الإنعام ليُعرَف الشاكر من الجاحد، وفي حال الإفقار ليُعلم الصابر والمؤمن من الْجَزِع والجاحد، والجزع: ضدّ الصبر.

وهذه المقالة من المشركين، قالها الذين سبقوهم، فزعموا هذا الزعم، وادَّعوا هذه الدعاوى مثل قارون وغيره، فما صحّ قولهم، ولم يُفِدْهم ما كسبوا من متاع الدنيا شيئاً، ولا نفعهم جمع المال الكثير.

(١) أي أعطيناه وملكناه. (٢) أي اختبار وابتلاء. (٣) أي مفلتين وناجين بأنفسهم. (٤) أي يضيِّق.

ترتَّب على هذا الموقف المباين للصواب والسداد أن يحلَّ بهم جزاء المعاصي والسيئات التي اكتسبوها من الأعمال، فعوقبوا في الدنيا بعقوبات شتى كخسف الأرض بقارون، وتدمير عاد وثمود وقوم لوط، ولهم أشدّ العقاب أيضاً في الآخرة، وكذلك هؤلاء الظالمون الكافرون من مشركي مكة حين نزول الوحي وأمثالهم في كل زمان، سيصيبهم وبال كسبهم منكراتِ الأعمال، وسوءَ الاعتقاد، كما أصاب من قبلهم، من القحط والقتل والأسر والقهر، وما هم بمفلتين ولا ناجين بأنفسهم من سلطان الله تعالى، بل مردّهم ومرجعهم إليه، في قبضته وهيمنته، يصنع بهم ما يشاء من العقوبة.

إن هؤلاء المعاندين لرسالة الأنبياء والمعارضين لدعوة الإصلاح، لا يغني عنهم كسبهم وجمعهم للأموال، ولا يغني أمثالَهم، والجميع يستحقون التوعُّد، فأولئك الغابرون، أصابهم جزاء ما كسبوا، وكذلك الذين ظلموا بالكفر من هؤلاء المعاصرين للنَّبي محمد ﷺ سيصيبهم ما أصاب المتقدِّمين.

ثم قرَّر الله تعالى القرار الحقيقي في أمر الكسب والرزق وسعة النِّعم، وطريقةِ قسمته بين الناس على وفق الحكمة والمصلحة للعباد أنفسهم، وهذا القرار هو: أوَ لم يعلم المشركون وأمثالهم أن الله هو الذي يبسط الرزق لقوم، ويضيِّقه على قوم بمشيئته وسابق علمه، وليس ذلك لمهارة أحد ولا لعجزه، إن في ذلك لدلالاتٍ واضحاتٍ وعلامات قاطعات لقوم يؤمنون بالله وحده، ويصدِّقون بسلطانه وقدرته الخارقة والشاملة.

وقد خصَّ الله تعالى المؤمنين بأنهم هم الذين ينتفعون بالآيات ويدركون ذلك، ويقدرون مواقفهم السديدة في مواجهة الحقّ تعالى، ويبين هذا أيضاً آية أخرى هي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشُّورى: ٤٢/ ٢٧].

إن في هذا البيان الإلهي تقريراً لأمرين: الأول-أن الله تعالى هو لا غيره الرازق المتكفِّل بأرزاق المخلوقات من بدء الحياة إلى الموت. والثاني-أن قسمة الرِّزق بيد الله تعالى، لا تكون مرتبطة بالمهارات وضدِّها من العجز، ولا بالإيمان ونقيضه، ولا بالاستقامة والطاعة وعكسها.

طريق التجديد والإصلاح

من المعلوم أن الإنسان مركب على النقص، معرَّض للأخطاء، فالخطأ ملازم لكل إنسان، لكن لا يجب ولا يصح استمرار الخطأ، وإنما العلاج سهل ويسير، والتخلص من آثار الزلات والانتكاسات أمر ليس بالعسير ولا بالشاق، ألا وهو العودة إلى الله تعالى، وتجديد الحياة، وتصحيح المسيرة بالتوبة الخالصة بين الإنسان وربه، وإخلاصه العمل له سبحانه، والتوجه الصحيح في فهم حقيقة الوجود، وضرورة الإيمان لكل إنسان، والالتزام بأصول الحق والسداد والاستقامة. قال الله تعالى مبيناً هذا المنهاج ليفتح لنا باب الأمل والرجاء:

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ[1] لَا تَقْنَطُوا۟[2] مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً[3] وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُّ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ[4] وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾

(١) أي تجاوزوا الحد وأفرطوا . (٢) لا تيأسوا، والقنوط أعظم اليأس . (٣) أي فجأة وعلى غير موعد . (٤) أي في تضييع شريعته والإيمان به .

بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٥٣-٥٩].

نزلت هذه الآية فيما رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس: أن ناساً من أهل الشرك قتَلوا فأكثروا، وزنَوا فأكثروا، ثم أتوا محمداً ﷺ، فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، أو تخبرنا أن لنا توبة، أو أن لما عملنا كفارة؟ فنزلت الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٦٨-٧٠] ونزل: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ..﴾ وهذه الآية عامة في جميع الناس إلى يوم القيامة، تشمل الكافر والمؤمن.

المعنى: قل أيها النبي لقومك: يا عباد الله الذين أسرفوا أو تجاوزوا الحد في المعاصي، واستكثروا منها، لا تيأسوا من مغفرة الله تعالى، فإن الله تعالى يغفر جميع الذنوب إلا الشرك الذي لم يتب منه صاحبه، كما في آية أخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤/ ٤٨].

إن الله كثير المغفرة واسع الرحمة، فلا يعاقب بعد التوبة، فإن توبة الكافر تمحو كفره، وتوبة العاصي تمحو ذنبه، ومقتضى ظواهر القرآن: أن الذنب مغفور بالتوبة ولا بد، لكن الشرك ليس بمغفور إجماعاً، وكل مغفرة أو عمل مقيد بمشيئة الله.

لكن المغفرة تتطلب أمرين: التوبة الخالصة لله تعالى، وإخلاص العمل لله سبحانه، لذا أمر الله بالإنابة إليه بالتوبة والطاعة، واجتناب المعاصي، وتسليم الأمر لله عز وجل، والرضا بحكمه وبأمره، من قبل مجيء عذاب الدنيا، والوقوع في الهزيمة المنكرة. ومعنى قوله: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾: ارجعوا وميلوا بنفوسكم.

وإخلاص العمل لله لا يكون إلا باتباع القرآن الكريم بإحلال حلاله، وتحريم حرامه، والتزام طاعته، وتجنب معصيته. ومعنى قوله: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ

﴿إِلَيْكُم..﴾ أي التزموا طريق التفهم والطاعة، واتبعوا أوامر الله واجتنبوا نواهيه، فهو أحسن من أن يسلك الإنسان طريق الغفلة والمعصية، وهذا هو المعنى المقصود بـ (أحسن) وليس معناه أن بعض القرآن أحسن من بعض، من حيث هو قرآن، وإنما وجه الأحسنية: هو بالإضافة إلى أفعال الإنسان وما يجد من عواقبها، فما يأمرُ به الله خير مما يفعله الإنسان بهواه وعقله، قال السّدي: الأحسن: هو ما أمر الله تبارك وتعالى به في كتابه.

واتباع أوامر الله: مطلوب قبل مجيء العذاب فجأة من غير موعد، والناس غافلون عنه لاهون، لا يشعرون به، وهذا تهديد ووعيد.

وهذا منهج الحكمة والعقل، فإن المبادرة إلى التوبة والعمل الصالح أمر مطلوب قبل فوات الأوان، وذلك قبل الندم، وقبل أن تقول نفس مفرطة في التوبة: يا حسرتاه على التقصير في الإيمان والطاعة، و تدبّر القرآن والعمل بأوامره وإرشاداته، فلقد كان عملي في الدنيا عمل ساخر مستهزئ بدين الله وكتابه وبرسوله وبالمؤمنين، غير مصدِّق بالله وحسابه. أو قبل أن تقول نفس: لو أن الله أرشدني إلى دينه، لكنت ممن يتقي الله ويجتنب الشرك. فهذه الجملة ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ هي من قول الكافر، مفادها الندامة على استهزائه بأمر الله، والسُّخر: الاستهزاء. أو قبل أن تقول حين معاينة العذاب: ليت لي رجعةً أخرى إلى الدنيا، فأكون من المؤمنين بالله، الموحّدين له، المحسنين في أعمالهم. ثم رد الله تعالى على أصحاب هذه التأملات بأنه قد جاءت آيات الله في قرآنه تنذر وتحذر، فكذبوا بها، وتكبروا عن اتباعها، وكانوا من الجاحدين بها، الكافرين بمضمونها.

إن هذه التحذيرات من سوء العاقبة مفيدة في الدنيا، لا في الآخرة، فإن الدنيا: هي دار التكليف، والآخرة هي دار الحساب والجزاء، وفي الآخرة لا ينفع الندم، ولا مجال لإصلاح العمل أو العودة للدنيا لتصحيح الأعمال.

الوحدانية والخلق والجزاء

يجمع الله تعالى في بضع آيات موضوعاتٍ متعددة، يساند بعضها بعضاً، وتحقق الغاية منها لإصلاح الإنسان، وتحذيره من الانحراف والعصيان، فيكون الوعد بجوار الوعيد، والنهي يقابل الأمر، والترغيب مع الترهيب، والإخبار بسوء مصير المكذبين بآيات الله، ونجاة المتقين في عالم القيامة، واقتران التذكير بأن الله خالق كل شيء، مع التفرد بالسلطان والحساب والجزاء، والتحذير من إحباط الشرك جميع الأعمال، والأمر بعبادة الله وشكره، وهذا اللون من الجمع بين المتقابلات يتميز به أسلوب القرآن المتميز بالإعجاز، وارتقاء المستوى البلاغي والفصاحة إلى أرقى الحدود؛ لأن الأشياء تتبين بأضدادها، قال الله تعالى:

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ(١) ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ(٢) ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ(٣) عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ(٤) وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٦٠-٦٧].

هذه ألوان من الأخبار المتضمنة للوعيد والتحذير والإنذار لمعاصري النبي محمد

---

(١) أي قائم على الأمر، موفٍّ كل شيء على السلام والكمال. (٢) أي مفاتيح، وهذه استعارة يراد بها بيان قدرة الله على كل شيء وتصرفه بكل شيء. (٣) أي يبطل ويفسد. (٤) هذه استعارة لكمال العظمة والقدرة.

ﷺ ومن يأتي بعدهم، تتضمن بيان خواص الألوهية والوحدانية، وكمالِ العظمة والسلطان والقدرة الإلهية.

أول هذه الخواص: أن الله تعالى هو المتفرد بالخلق والإبداع وإيجاد جميع الأشياء في الدنيا والآخرة، وأنه القائم على جميع الأمور المستقل بها، الموكل بحفظها وتدبيرها، والمتولي إكمالها وتتميمها، وهذا دليل على أن الله هو الخالق لجميع أعمال الناس.

وأخبر أيها النبي بخبر مهم جداً: وهو أنك وكل إنسان ترى المشركين يوم القيامة، الذين كذبوا على الله في ادعائهم شريكاً لله، وجوههم مسودة مظلمة بكذبهم وافترائهم، لما شاهدوه من مآسٍ وأحزان، وعذاب وسخط، إن في جهنم مسكناً ومقاماً للمتكبرين عن طاعة الله، الذين أبوا الانقياد للحق والطاعة.

وأخبر في مقابل هؤلاء الجناة للمعادلة والموازنة عن حال المتقين الذين اتقوا الشرك والمعاصي، فإن الله تعالى ينجيهم من النار، ويدخلهم الجنة، ويحميهم من السوء والكدر، ومن الحزن والألم، فهم آمنون من كل فزع.

وثاني خواص القدرة الإلهية: أن الله تعالى هو المتصرف والمتحكم في شؤون السماوات والأرض، وبيده خزائن الخيرات فيهما: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهذه استعارة يراد بها بيان قدرة الله تعالى المطلقة وتحكم الله في مخزونات الكون حفظاً وتدبيراً، ومنحاً ومنعاً، أو عطاء وحرماناً، لكن الذين جحدوا بآيات الله الكونية الدالة على وحدانيته وقدرته، في أنحاء السماوات والأرض، أولئك لا غيرهم هم الذين خسروا أنفسهم، واستحقوا الخلود في النار، جزاء كفرهم.

وإذا كان الله تعالى هو المتميز بالوحدانية والقدرة المطلقة، فيستحق المشركون التوبيخ على ترك عبادة الله، والتوجه نحو عبادة الأصنام، فقل أيها الرسول لكفرة

قومك وأمثالهم: كيف تأمروني أيها الجهال بعبادة غير الله تعالى؟ بعد قيام الأدلة القطعية على تفرده بالألوهية، فهو خالق الأشياء ومدبرها ورازقُ الأحياء، فلا تصلح العبادة إلا له تعالى.

وسبب نزول هذه الآية: هو كما روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس: أن المشركين من جهلهم، دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم، وأن يعبدوا معه إلهه، فنزلت هذه الآية: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

ثم قرَّر الله تعالى مبدأ إعلان الوحدانية الدائم في قوله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ..﴾ أي إن أمر المشركين المساومين عجيب، فلقد أوحي إلى النبي محمد وإلى كل نبي عليهم الصلاة والسلام: لئن أشركت مع الله إلهاً آخر، ليبطلنَّ عملُك، ولتكونن من الذين خسروا أنفسهم، وأضاعوا دنياهم وأخراهم. وهذا دليل على أن الشرك يحبط الأعمال، ويضيعها هباء منثوراً، ولو كانت خيراً.

ثم أكد الله تعالى مقتضى الوحدانية بأمر النبي ﷺ بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وأن يكون من الشاكرين نعم الله بالهداية والرسالة النبوية.

أما المشركون: فلم يقدروا الله حق قدره، أي لم يعظموه حق تعظيمه، حين عبدوا معه إلهاً آخر، فإن الأرض كلها تحت سلطان الله وتصرفه وملكه والسماوات خاضعة لقدرته وسلطانه ومشيئته، تنزه الله عما يشركون به من الشركاء. والمراد باليمين والقبضة في الآيات: أنها عبارة عن القدرة والقوة.

وسبب نزول هذه الآية كما روى الطبري: هو الرد على رهط من اليهود حين أتوا النبي ﷺ فقالوا: يا محمد، هذا الله خلق الخلق، فمن خلقه؟ فغضب النبي، ثم جاءه الجواب عما سألوا عنه بنزول سورة الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ فلما تلاها عليهم النبي قالوا: صف لنا ربك، كيف خَلْقه، وكيف عضده، وكيف

ذراعه؟ فغضب النبي ﷺ أشد من غضبه الأول، ثم ساورهم، فأتاه جبريل فقال مثل مقاله، وأتاه بجواب ما سألوه عنه: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ الآية.

نفخة الصور وتوابعها

لكل شيء مخلوق نهاية، والدوام والخلود ابتداءً وبقاءً هو لله تعالى، والنهاية الحتمية للمخلوقات جميعها تكون يوم القيامة، وهي أمر سهل على الله تعالى، لأن من ملك البدء في الخلق، أمكنة الإعادة، وهما سواء بالنسبة للخالق عز وجل، ونهاية الكون تكون بنفخات ثلاث: الأولى صعقة الفزع، وهي ليست مذكورة في الآيات الآتية، ثم نفخة الصور للإماتة، ثم نفخة البعث من القبور، وهاتان النفختان مذكورتان في الآيات الآتية، ويتبع ذلك فصل الخصومات أو المنازعات بين الناس، على منهج الحق التام والعدل المطلق، ثم إيصال الحق لصاحبه. قال الله تعالى واصفاً هذه الأحداث الجسام:

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ[1] فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا

(١) الصور: القَرْن أو البوق الذي ينفخ فيه قبل القيامة.

وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۚ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ [الزمر: ٣٩/ ٦٨-٧٥].

من تمام مظاهر قدرة الله تعالى: النفخ في الصور ليُصعَق الأحياء من أهل الدنيا والسماء، والنفخات ثلاث كما ذكرت: نفخة الفزع[1]، ولم تتضمنها هذه الآية، فاذكر أيها النبي حين ينفخ إسرافيل في الصور للإماتة، والصور قرن أو بوق، فيخرّ ميتاً جميع أهل السماوات والأرض، إلا من شاء الله ألَّا يموت حينئذ كجبرائيل وميكائيل وإسرافيل حيث يموتون بعد ذلك، ثم ينفخ إسرافيل نفخة أخرى للبعث من القبور، فيقوم الناس أحياء من قبورهم، ينظرون أهوال يوم القيامة، وينتظرون ماذا يُفعل بهم، بعد أن كانوا عظاماً بالية، ورفاتاً مفتتة كالتراب.

رُوي أن بين النفختين أربعين سنة أو شهراً أو يوماً أو ساعة، لا يدري الراوي أبو هريرة ذلك، كما روى البخاري.

وتكون أحوال القيامة على النحو التالي:

أ-٤: تضيء الأرض في المحشر بتجلي الحق للخلائق لفصل القضاء، ويوضع سجل أو صحائف الأعمال لبني آدم بين يدي أصحابها، إما باليمين أو بالشمال ويجاء بالأنبياء إلى الموقف ليُسألوا عما أجابتهم به أقوامهم، ويجاء أيضاً بالشهود الذين يشهدون على الأمم، من الملائكة الحفظة التي تقيّد أعمال العباد. والشهداء: جمع شاهد، والمراد بالشهود: أمة محمد ﷺ الذين جعلهم الله تعالى شهداء على الناس.

(١) ثبت في بعض الأحاديث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أن قبل صعقة الموت صعقة الفزع

وتكون توابع الحشر والنشر والحساب والجزاء كما يلي:

أ-٤: يقضي الله بين العباد بالحق والعدل والصدق، ولا يظلم ولا ينقص شيء من ثوابهم، ولا يزاد في عقابهم، ويكون الجزاء على قدر أعمالهم، وتوفى أو تعطى كل نفس جزاء ما عملت من خير أو شر، والله أعلم من كل أحد بما يفعل العباد في الدنيا، من غير حاجة إلى كاتب أو حاسب أو مسجل، ولكن وضع الكتاب أو صحفِ الأعمال وشهادة الشهود والأنبياء لإلزام الناس بالحجة وقطع المعذرة. ثم أبان الله تعالى حال الأشقياء وحال الأتقياء.

فيساق الكافرون سوقاً عنيفاً بزجر وتهديد إلى جهنم، جماعات متفرقة، حتى إذا وصلوا إليها، تفتح لهم أبوابها السبعة، ليدخلوها ويعاقبوا فيها. وتقول لهم خزنة النار من الملائكة، على وجه التقريع والتوبيخ: ألم يأتكم رسل من جنسكم تأخذون عنهم، ويتلون عليكم آيات الله التي أنزلها لإقامة الحجة على صحة ما دعوكم إليه، ويحذرونكم شر هذا اليوم، فأجابوا بقولهم: بلى، جاؤونا وأنذرونا، ولكن كذبناهم وخالفناهم، ووجبت كلمة العذاب على من كفر بالله وأشرك. فتقول لهم الملائكة: ادخلوا في أبواب جهنم التي فتحت لكم، مقدَّراً لكم فيها الخلود والبقاء والدوام إلى الأبد، فبئس المقر الدائم جهنم، بسبب تكبركم في الدنيا عن اتباع الحق.

وأما الأتقياء الذين اتقوا الشرك، وهم كل من يدخل الجنة من المؤمنين: فتسوقهم الملائكة إلى الجنة بإعزاز وتكريم، جماعات متعاقبة، حتى إذا وصلوا إلى أبواب الجنة الثمانية، بعد تجاوز الصراط فتفتح لهم أبوابها الثمانية، والواو في قوله: ﴿وَفُتِحَتْ﴾ واو الحال، للدلالة على فتح الأبواب سابقاً، وعلى الترحيب بهم، ولاستعجال السرور قبل الدخول إذا رأوها مفتوحة، وصيانة لهم عن المذلة التي يلقاها من يجد الباب مغلقاً في وجهه. وتقول لهم خزنة الجنة: سلام لكم من كل آفة ومكروه، طابت أعمالكم وأقوالكم وسعيكم في الدنيا، فادخلوا الجنة ماكثين فيها على الدوام.

وقال هؤلاء المؤمنون الأتقياء: الحمد لله الذي أنجز لنا وعده على ألسنة الرسل، وجعلنا ورثة جنان الخلد، ننزل فيها أي مكان شئنا، فنعم الأجر أجرنا على عملنا ونعم أجر العاملين: وهو الجنة.

وترى أيها السعيد أن الملائكة تحيط بالعرش المجيد، ينزهون الله عن أي نقص أو شبيه، ويمجدونه ويعظمونه، ويفصل بينهم فصلاً بالحق والعدل، ويقولون: سبحان الله و بحمده، فهو رب جميع العالمين من إنس وجن.

تفسير سورة غافر

مصدر القرآن الكريم

لقد أدرك الكافرون من العرب والمؤمنون أن القرآن العظيم كلام الله تعالى، لاختلافه التام عن كلام البشر من أدب وشعر، ونثر وخطابة، ولتفوقه في البلاغة والفصاحة، ولسموه في النظم والمعنى والانسجام، إلا أن من لم يؤمن به عاند وتحدى، حفاظاً على المراكز والمصالح، ومن بادر إلى الإيمان به، استجاب لنداء العقل والحكمة، واختار لنفسه طريق السعادة والنجاة، وحمى نفسه من التردي والضياع والخسران. وهذا ما قررته الآيات الشريفة الآتية بكل ثقة وبداهة في أول سورة غافر أو المؤمن التي هي مكية:

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ[1] لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٤ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟[2] بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾

[غافر: ٤٠/ ١-٦]

---

(١) أي مصدر الإنعام صاحب النعم والفضل والغنى، فالطول: السعة والغنى. (٢) أي ليبطلوا ويزيلوا به الحق.

هذه الآيات تبين مصدر إنزال القرآن: وهو أنه من عند الله، وتناقش الكفار الذين جادلوا بالباطل، لدحض الحق، فاستحقوا التهديد بالعذاب في النار.

حمٓ: حروف مقطعة للاستفتاح والتنبيه لخطر ما بعدها، وللتحدي بالإتيان بمثل آي القرآن في الفصاحة والبلاغة، والإحكام في النظم والمعنى، لأنه لم يخرج تركيبه عن الحروف العربية، مثل هذين الحرفين: حمٓ، ثم إن تنزيل القرآن الكريم على قلب النبي محمد ﷺ من الله الغالب القوي القاهر، الواسع العلم بخلقه وبكل أقوالهم وأفعالهم، فأنت أيها النبي صادق في قولك: إنك رسول الله، وإن القرآن من عند الله. والله منزِّل القرآن: هو غافر الذنب الصادرِ من الإنسان، وقابلُ التوبة الخالصة منه، وشديد العقاب لمن عاداه، وذو الفضل والسعة والنعمة والمن بكل نعمة، ينعم بمحض إحسانه، وهو الإله الواحد الذي لا شريك له ولا نظير، وإليه مرجع الخلائق كلهم. هذه ست صفات لله عز وجل تضمنت وعيداً بين وعدين، وعيداً بالعقاب، ووعداً بمغفرة الذنب وبالإمداد بالنعم، وهكذا رحمة الله تعالى تغلب غضبه. قال عمر رضي الله عنه: «لن يغلب عسر يسرين» مشيراً لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح: ٩٤/ ٥-٦].

ولا يخاصم في دفع آيات الله وتكذيبها إلا الذين كفروا بالله، فهم يجادلون بالباطل، أي جدالاً باطلاً، فلا تغتر أيها النبي أو تظن أن وراء تقلبهم وإمهالهم خيراً لهم، ولا يغتروا بإملاء الله تعالى لهم، أي ولا تنخدع بتصرفهم وتمتعهم بالمساكن والمزارع والأسفار، وتنقلهم في بلاد الله للتجارة وتحقيق الأرباح، وجمع الأموال، فإنهم معاقبون عما قليل، وعاقبتهم في النهاية: الدمار والهلاك.

ثم ذكر الله تعالى أن لهم مثلاً بمن تقدمهم من الأمم السابقة، فكما حل العقاب بأولئك، كذلك ينزل بهؤلاء، فلقد كذبت قبل جماعة قريش قوم نوح والأحزاب

(الجماعات) الذين تحزبوا على الرسل من بعد قوم نوح، كعاد وثمود وأهل مدين وأصحاب لوط، وقوم فرعون وغيرهم، فإنهم جاهروا بتكذيب الرسل، فعوقبوا أشد العقاب.

وعزَمتْ كل أمة من تلك الأمم المكذبة برسولهم المرسل إليهم على أخذه، لحبسه وتعذيبه، أو قتله، أو طرده، وجادلوا الرسل بالشبهة المزيفة، وبباطل القول وزخرف الكلام، لرد الحق، وإبطال الإيمان الصحيح.

وقوله تعالى: ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ معناه: ليهلكوه، والأخيذ: القتيل أو الأسير، فأخذهم الله، أو أهلكهم ودمرهم.

فانظر كيف كان عقابي الذي عاقبتهم به؟ فإنه كان مهلكاً مستأصلاً. فيكون قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ تعجيب وتعظيم، وليس باستفهام عن كيفية وقوع الأمر.

ثم أكد الله تعالى هذا المعنى بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ..﴾ أي وكما أخذت أولئك المذكورين وأهلكتهم، فكذلك حقت كلماتي، ووجب عذابي على جميع الكفار، من تقدَّم منهم ومن تأخر، أنهم أهل النار وسكانها. وهذه كلها عبارة عن تحتم القضاء عليهم، فما دام السبب واحداً أو العلة واحدة، فإن الجزاء أو العذاب واحد، وهو استحقاقهم النار.

إن عدالة القرآن الكريم، وبيانه البديع، وقانونه الحق المبرم يتطلب كل ذلك الإذعان لدعوته وامتثال أمر الله وطاعته، والحذر من مخالفته وعصيانه، ولو لم يكن ذلك منهج القرآن الذي يسوّي بين جميع البشر في الحساب والجزاء، لما أيقن أهل الإيمان بقدسيته، ولما جعلوه بمثابة الروح والقلب والدم في نفوسهم، بل الذي لا يعلوه شيء ولا يتقدم عليه شيء.

استغفار الملائكة للمؤمنين

كرَّم الله تعالى أهل الإيمان بأنواع متعددة من التكريم والتشريف، سواء في الدنيا أو في الآخرة، ومن ذلك أن الملائكة حملة العرش والذين هم حول العرش وهم أفضل الملائكة يستغفرون للمؤمنين، ويسألون الله تبارك وتعالى لهم الجنة والرحمة. وما أحوج الإنسان إلى رحمة الله وفضله!! وما أكرم المؤمن الذي يحظى بدعاء الملائكة، وبقبول الله لهذا الدعاء المخلص المجاب من رب العزة، كما جاء في بعض الآيات: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾ [الفرقان: ١٦/٢٥]. أي سألته الملائكة فأجيبوا. وجاء تفسير مجمل هذا الدعاء في آية أخرى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥/٤٢]. وهذا الدعاء والتكريم الملائكي للمؤمنين: هو مضمون الآيات الآتية:

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩﴾ [غافر: ٧/٤٠-٩].

المعنى: إن الملائكة حملة العرش ومن حول العرش وهم الكروبيون أفضل الملائكة ينزهون الله تعالى عن جميع النقائص، ويحمدونه على نعمه البالغة، ويصدِّقون بوجود الله ووحدانيته، ولا يتكبرون إطلاقاً عن عبادته، ويطلبون المغفرة السابغة للذين آمنوا بالله وبالغيب، لا للذين كفروا بالله ومغيباته، إذ لا يجوز الاستغفار للكفار إلا بمعنى طلب هدايتهم والمغفرة لهم بعد ذلك، كاستغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه. واستغفار رسول الله ﷺ للمنافقين: معناه أن يهديهم الله ثم يستقيموا.

والعرش: أعظم المخلوقات، وهو مركز تدبير العالم وهو حقيقة، الله أعلم به. ومضمون دعاء الملائكة بالاستغفار هو:

يا ربنا الذي وسعتْ رحمتك وعلمك كل شيء، اغفر واستر واصفح عن المؤمنين الذين تابوا عن الذنوب، واتبعوا سبيلك ودينك في القرآن، واحفظهم من عذاب الجحيم-عذاب النار.

ربنا وأدخل المؤمنين جنات عَدْن، أي جنات الإقامة الدائمة التي وعدتهم بها على ألسن الرسل، وأدخل معهم من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرّياتهم المؤمنين الصالحين، اجمع بينهم وبينهم، تكميلاً لنعمتك وفضلك، إنك أنت القوي الغالب الذي لا يقهر، الحكيم في أقوالك وأفعالك من شرعك وقدرك.

روي عن سعيد بن جبير في تفسير هذه الآية: أن الرجل يدخل الجنة قبل قرابته، فيقول: أين أبي؟ أين أمي؟ أين زوجتي؟ فيلحقون به لصلاحهم، ولتنبيهه عليهم وطلبه إياهم، وهذه دعوة الملائكة.

ولم يقتصر دعاء المؤمنين على طلب إدخال الجنان، وإنما شمل طلب الحماية من العذاب أو العقاب، فيا ربنا احفظ المؤمنين من ألوان العقاب والعذاب وجزاء المعاصي التي ارتكبوها، بأن تغفر لهم، ولا تؤاخذهم بشيء منها، واحمهم من آثار السيئات، فمن وقيته من السيئات يوم القيامة، فقد شملته برحمتك، وأنجيته من عذابك، وذلك هو الفوز الأكبر الذي لا فوز أفضل منه. وقوله تعالى: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يحتمل معنيين:

الأول: يحتمل أن يكون الدعاء في أن يدفع الله عنهم السيئات نفسها حتى لا ينالهم عذاب من أجلها.

الثاني: ويحتمل أن يكون الدعاء في رفع العذاب اللاحق من السيئات، أي وقهم جزاء السيئات، فهو على هذا على حذف مضاف.

إن فائدة استغفار الملائكة للمؤمنين التائبين الصالحين هي زيادة الكرامة والثواب، وتحقق الإجابة لهذا الدعاء، لأن دعاءهم وسؤالهم بوعد من الله تعالى، لا خُلْف فيه.

ومن مزيد فضل الله وتكريمه: إخباره في قرآنه المجيد عن هذا العون والمدد: بأن الملائكة تستغفر لأهل الإيمان، كما تستغفر أيضاً لطلاب العلم، كما جاء في الحديث النبوي الذي رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والبيهقي عن أبي الدرداء الذي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهّل الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتانُ في الماء..».

أهوال الحساب يوم القيامة

لا يتصور إنسان تصوراً واعياً مدى المخاطر والأهوال والمخاوف التي يتعرض لها الكفرة في عالم الحساب يوم القيامة، ولولا القرآن الكريم الذي رسم صورة مرعبة لحال الكفار في ذلك اليوم الرهيب، لما أدركنا تلك الأهوال أو تصورناها، وإشفاقاً على هذا الإنسان المتمرد في الدنيا عن الإيمان بربه والعمل بأوامر الله، كيف يتحمل تلك الأهوال وألوان العذاب والهزات والآلام الشديدة؟! ولكن العلاج سهل وتفادي الويلات المرتقبة أمر يسير جداً، وهذه مهمة القرآن الكريم في الإنذار والتحذير، كما ترسم هذه الآيات:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ[1] ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ[2] ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ[3] مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ[4] ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾

[غافر: ٤٠/ ١٠-١٧].

هذه أحوال الكافرين، ذكرت عقب بيان أحوال المؤمنين من التكريم بدعاء الملائكة لهم، ليتبين الفرق، وتتبين المعادلة أو الموازنة بين الفريقين على نحو واضح كالشمس، وهذه الفوارق هي ما يلي:

- تنادي الملائكة الكفار يوم القيامة، وهم يعذبون في نار جهنم: بأن تعذيب الله وغضبه عليهم في الآخرة أشد وأكبر من مقت أنفسهم ولومها على ما قدموا من سوء الأعمال في الدنيا حين أعرضوا عن الإيمان بالله تعالى، ودُعوا إليه، فكفروا وتمردوا.

- فيجيب الكفرة مستغيثين مستنجدين قائلين: يا رب، لقد أمتنا مرتين حين كنا نُطفاً في الأصلاب، وذرات في عالم الذر، وحين صرنا أمواتاً بعد حياة الدنيا، وأحييتنا مرتين أيضاً: حياة الدنيا، وحياة البعث والنشور من القبور، فاعترفنا

(١) المقت: أشد أنواع البغض، والمراد به التعذيب والغضب. (٢) مرتفع الصفات، منزه عن مشابهة المخلوقات. (٣) أي الوحي الإلهي. (٤) يوم اجتماع الخلائق للحساب بين يدي الله تعالى.

بذنوبنا التي اقترفناها في الدنيا، من تكذيب الرسل، والتورط في الشرك، وإنكار البعث والحساب في عالم الآخرة، فهل لنا طريق للخروج من النار والرجوع إلى الدنيا، لنعمل غير الذي كنا نعمل؟!

فأجابتهم الملائكة: ذلكم المقت لأنفسكم، وتعرضكم للعذاب الذي أنتم فيه على النحو القائم في وضعكم: لا تغيير فيه ولا تبديل، ولا رجعة إلى الدنيا، بسبب أنكم كنتم إذا دُعيتم لتوحيد الله عز وجل في دنياكم، كفرتم به وتركتم توحيده باستمرار، وإن يشرك بالله غيره من عبادة الأصنام ونحوها، تُصدِّقوا بالشرك وتجيبوا الداعي إليه، فالحكم لله وحده دون غيره صاحب العظمة والجلال، والتعالي عن المثيل في ذاته وصفاته، الأكبر من كل شيء في الوجود.

ومن كمال عظمة الله وقدرته: أنه سبحانه هو الذي يظهر لكم دلائل توحيده، وعلامات قدرته في آيات الكون العظيمة، الدالة على مبدعها وخالقها، وينزل لكم من السماء المطر، يكون سبباً في الرزق والنماء، ونتاج الزروع والثمار، ولكن لا يتعظ بتلك الآيات إلا الراجع إلى ربه، الخاشع المطيع، فأخْلِصوا لله وحده العبادة والدعاء، ولو كره الجاحدون المنكرون منهجكم ذلك.

ومن صفات الله العالية: أنه رفيع الصفات، منزه عن مشابهة المخلوقات، صاحب العرش والسلطان المطلق، ينزل الوحي على من يريد من عباده ويصطفيه، لينذر بهذا الوحي الناس من العذاب، يوم اجتماع الخلائق للحساب في محشر القيامة.

ومن صفات القيامة: أن يوم التلاق أو اجتماع الناس للحساب هو اليوم الذي يكونون فيه ظاهرين للعِيان، أي مرئيين بالعين المجردة، لا يسترهم شيء لاستواء الأرض وهم خارجون من قبورهم، ويكون فيه الملك المطلق والسلطان الشامل لله

الواحد الأحد، صاحب القهر والغلبة والقدرة، لا لأحد سواه من ملَك أو رسول أو نبي.

إن يوم القيامة: هو يوم الجزاء والحساب والعقاب والثواب بحسب عمل كل عامل، من خير أو شر، صالح أو سيئ، ولا ظلم في الحكم فيه على أحد، فلا زيادة في العقاب، ولا نقص من الثواب، وإن الله في هذا الموقف سريع الحساب لعباده على أعمالهم في الدنيا، فيحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفساً واحدة، كما جاء في آية أخرى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٣١/٢٨]. وهذا نص واضح على أن الثواب أو العقاب على اكتساب العبد وعمله، وعلى إحاطة الله بالأشياء علماً.

إنذارات من مخاوف القيامة

حرص الحق سبحانه وتعالى في قرآنه على تقويم الإنسان وضمان حياة السعادة والنجاة له، فقدّم له الإنذارات المتتالية، والتحذيرات المتعاقبة، ولا سيما من أهوال القيامة ومخاطرها، وهو يوم الآزفة، ليبادر الناس جميعاً للإيمان، ويتجنبوا الشرك والعصيان، فإن فعلوا حققوا الخير لأنفسهم، وإن تمردوا وعصوا، جلبوا الدمار والهلاك لذواتهم، ولا يغنيهم أي شيء قدموه أو يقدمونه عن الجزاء العادل، والحساب الرهيب عن سوء أعمالهم، وفحش منكراتهم. وإذا كان الأمر خطيراً تفادينا أسبابه، والسبب النافع يحقق ثمرة طيبة، والسبب العقيم يؤدي إلى نتيجة وخيمة، قال الله تعالى واصفاً إنذاراته:

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ[1] إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ[2] مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ

(١) أي يوم القيامة، سميت بذلك لقرب وقوعها. (٢) أي ممتلئين غماً شديداً، والحناجر: جمع حنجرة وهي الحلقوم.

وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ[1] ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ [غافر: ٤٠/١٨-٢٢].

المعنى: خوِّف أيها الرسول أهل الكفر من يوم القيامة، ليؤمنوا ويتركوا الشرك والضلال، حيث تكون القلوب في ذلك اليوم كأنها زائلة عن مواضعها من الخوف، وترتفع حتى تصير إلى الحلوق، ويكون أصحابها ممتلئين كرباً وغماً شديداً، ولا يكون للظالمين الكافرين قريب ينفعهم، ولا شفيع يشفع لهم، أو تقبل شفاعته بهم. وقوله تعالى: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ معناه عند الحناجر، قد صعدت من شدة الهول والجزع.

وهذا يصور حال الرعب والخوف أو الذعر الذي يكون عليه الكفار يوم القيامة، والله تعالى يعلم النظرة الخائنة، التي ينظرها الإنسان إلى ما حرَّم الله عليه، أي يعلم الاختلاسة التي تختلس النظر إلى المحرَّم وتسارقه، ويعلم الله أيضاً كل ما تُسِرّه الضمائر من أمور خيِّرة أو شريرة،. وما تخفيه الصدور من الرغبات والنوايا والخواطر.

والنظرة الخائنة: هي النظرة الثانية، وما تخفي الصدور: أي عند النظرة الأولى التي لا يمكن للمرء دفعها. وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ متصل بقوله: ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لأن سرعة حسابه تعالى للخلق، إنما هي بعلمه الذي لا يحتاج معه إلى رؤية وفكرة، ولا لشيء مما يحتاجه الحاسبون. والله يحكم بالحكم العادل، ويجازي كل

(١) أي حافظ يدفع عنهم السوء أو العذاب .

إنسان بما يستحقه من خير أو شر. وأما الذين يعبدون الأصنام من غير الله، فإن أصنامهم لا يتمكنون من القضاء بشيء، أو فلا يحكمون بشيء، ولا يملكون شيئاً، لأنهم لا يعلمون شيئاً، ولا يقدرون على شيء، وإن الله هو السميع لكل شيء من الأقوال والبصير بالأفعال، فيجازي عليها أصحابها يوم القيامة. وهذا وعيد شديد، وتحذير رهيب على أقوالهم وأفعالهم.

ثم أنذر الله تعالى الكافرين، وخوّفهم من عقاب الدنيا، بعد أن حذَّرهم من عذاب الآخرة، فأرشدهم إلى الاعتبار والاتعاظ بغيرهم، أفلم يمش هؤلاء المكذبون برسالتك أيها النبي محمد، فينظروا مآل الغابرين المكذبين أنبياءهم، وما حلّ بهم من عذاب الاستئصال والانتقام، مع أنهم كانوا أشد قوة من قومك أهل مكة وأمثالهم، وأبقى آثاراً، بما عمروا في دنياهم من حصون وقصور، وأشادوا من مدن وقلاع، فأهلكهم الله بذنوبهم ومنكراتهم، ولم يكن لهم من الله من واقٍ، أي ساتر مانع يقيهم السوء، ويدفع عنهم العذاب. وهذا تحذير شامل للكافرين في كل زمان، حيث يجب عليهم أن ينظروا بما حل بالأقوام الغابرين.

وعلّة هلاكهم وتدميرهم أو أخذهم وإماتتهم: بسبب أن رسلهم كانوا يأتونهم بالحجج الواضحة على الإيمان الحق، فكفروا بما جاؤوهم به، فأهلكهم الله، ودمر ديارهم عليهم، إن الله ذو قوة شديدة، وبطش كبير، وذو عقاب مؤلم جداً، يفعل كل ما يريد، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فهل من متعظ؟

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى أخذ الله الكفار بذنوبهم، وإن لم يكن لهم منه واق أو حافظ مانع. وسبب إهلاك الماضين هو ما عليه قريش في عصر النبي ﷺ، حيث جاءهم رسول من الله تعالى، مؤيد بالمعجزات والبراهين، فكفروا به، فأهلكهم الله، وقد وصف الله نفسه بالقوة وشدة العقاب، وكل ذلك وعيد لقريش وأمثالهم.

موقف فرعون من رسالة موسى عليه السلام

إن الصراع الحاد بين الخير والشر، وبين دعوة الإصلاح ومعارضيها أمر قديم في الإنسان، ولكن مهما كانت المقاومة شديدة، فإنه لا يأس ولا قنوط، فقد يهتدي بعض الراشدين العقلاء، ويظل أولو النفوذ والسلطة والمصلحة على غيهم وضلالهم وتمسكهم بمواقفهم، على الرغم من معرفة الحق وقوته، وضعف الباطل وجهالته، وهذا موقف من هذه المواقف التي تتصادم فيها دعوة المصلحين مع مصالح المتسلطين، وهو موقف فرعون من رسالة موسى عليه السلام، وصف الله تعالى هذا الموقف بقوله:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ[1] وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ[2] بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ [غافر: ٤٠/ ٢٣-٢٧].

هذه قصة عجيبة في تاريخ الدعوة إلى الله تعالى، فيها للنبي ﷺ إيناس وتثبيت وأسوة، وفيها لقريش والكفار وعيد وتخويف وإرهاب أن يحل بهم ما حلّ بأولئك من النقمة، وفيها للمؤمنين وعد، ورجاء بالنصر والظفر وإدراك عاقبة الصبر.

تبدأ القصة بقسَم الله تعالى أننا: لقد أرسلنا موسى بالمعجزات الدالة على صدقه، وأيدناه بحجة بينة واضحة، مضمونها تحدي فرعون بالعصا واليد وغيرهما من الآيات

(١) أي أبقوهم أحياء. (٢) أي استجرت واستعنت واستعذت.

التسع. أرسلناه إلى فرعون ملك مصر، وإلى هامان وزيره، وإلى قارون كبير الأثرياء في زمانه، فقالوا عنه: إنه ساحر مخادع مجنون، كذّاب فيما زعم أن الله أرسله وخُص هؤلاء الطغاة بالذكر، لأنهم رؤساء القوم، وغيرهم تابع لهم، وشأن المتسلطين المستكبرين ألا يذعنوا لكلمة الحق والهداية، حفاظاً على مراكزهم وقواهم ومكانتهم بين الأتباع.

فلما أتى موسى عليه السلام بالحق، أي بالبرهان القاطع الدال على أن الله أرسله إلى فرعون وقومه، بمعجزاته الظاهرة، قال الطغاة: عودوا إلى قتل الذكور. وترك النساء أحياء، لئلا يكثر جمعهم، ويضعف شأنهم، وما مكر الكافرين وقصدهم تقليل خصومهم إلا في ضياع وذهاب سدى، لا فائدة منه.

وقال فرعون لقومه: دعوني أقتل موسى، وليدع ربه الذي يزعم أنه أرسله إليهم، فليمنعه من القتل إن قدر على ذلك.

وسبب القتل: أني أخشى عليكم يا شعب مصر أن يغير منهاج دينكم الذي أنتم عليه من عبادتي وعبادة الأصنام، ويدخلكم في دينه الذي هو عبادة الله وحده، أو أن يوقع بين الناس الخلاف والفتنة والإفساد، فتكثر الخصومات والمنازعات.

والظاهر من هذا الموقف لفرعون: أنه بُهر بآيات موسى ومعجزاته، وانهدّ ركنه، واضطربت معتقدات أصحابه، فلجأ إلى التهديد بالقتل. وهذا سلاح الجبّارين المتمكنين من إنفاذ أوامرهم. فإذا اعتز فرعون بجبروته وبطشه وقوته، فإن موسى عليه السلام اعتصم بالله تعالى، وقال داعياً ربه لما سمع قول فرعون وتهديده له بالقتل لأنه كان معه في مجلس واحد: إني استجرت بالله، وعُذْت به من شره وشر أمثاله من كل متعاظم متعال مستكبر عن الإذعان للحق، كافر مجرم لا يؤمن باليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء.

واستعاذة موسى من فرعون الذي جمع بين الاستكبار وبين التكذيب بيوم الآخرة والجزاء والحساب، بسبب الجرأة على الله تعالى وعلى عباده. وقول موسى: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ لحث قومه على مشاركته في الاستعاذة بالله من شر فرعون وملئه.

وقد ثبت أن النبي ﷺ كان إذا خاف قوماً قال: «اللهم إنا نعوذ بك من شرورهم، وندرأ بك في نحورهم».

إن هذه المواجهة الكلامية الساخنة غير متكافئة في عرف الناس، فإن فرعون الملك الحاكم الجبار يعتمد على قوى كثيرة، وجند مدججين بالسلاح، وأما موسى بمفرده أو مع أخيه هارون لا يملكان مثل تلك القوى الظاهرة المادية، ويحكم الناس عادة على الضعيف بالهزيمة، ويغيب عنهم أن الضعيف يتقوى بقوة الله تعالى، فيتغلب على جميع القوى بتأييد الله تعالى.

دفاع مؤمن آل فرعون عن موسى عليه السلام

لقد طاش عقل فرعون وصوابه أمام معجزات موسى عليه السلام، فلجأ إلى التهديد بقتل موسى عليه السلام، وزاد من ارتباكه واضطرابه مقالة رجل مؤمن من قومه وما صدع به، فدافع عن موسى بأوجه ثلاثة:

الأول- استنكار قتل موسى المؤمن بربه.

الثاني- تحذير القوم بأس الله في الدنيا والآخرة بتكذيب الرسل.

الثالث- تذكيرهم بما فعل آباؤهم الأولون مع يوسف عليه السلام، من تكذيب رسالته ورسالة من جاء بعده.

وهذا الدفاع من رجل هو من آل فرعون أو من أبناء عمه، كان يكتم إيمانه بالله تعالى، كان له شأنه البعيد في إحباط خطط فرعون، وهو موقف تاريخي خلّده القرآن الكريم، فرضي الله عن هذا المؤمن وأمثاله في سجل الخالدين. قال الله تعالى واصفاً قصة مؤمن آل فرعون:

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ(١) كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ(٢) فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ(٣) ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ(٤) قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ(٥) ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ(٦) أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: ٤٠/٢٨-٣٥].

هذا موقف خالدٌ لرجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه، أثبته الله في المصاحف، لكلام قاله في مجلس من مجالس الكفر، وأثنى عليه إلى الأبد، لقد قال هذا الرجل: كيف تقتلون رجلاً لا ذنب له إلا أنه قال: الله ربي؟ والحال أنه قد جاءكم

(١) متجاوز الحد في المعاصي. (٢) غالبين متفوقين على بني إسرائيل. (٣) مثل أيام الأمم الماضية أي وقائعهم. (٤) مثل عادة وجزاء ما كانوا عليه من الكفر. (٥) يوم القيامة، ينادي فيه بعضهم بعضاً للاستغاثة. (٦) حجة قوية.

بالمعجزات الواضحات الدالة على صدق نبوته ورسالته، فهذا لا يستدعي القتل، فتوقف فرعون عن قتله.

وأضاف الرجل حججاً ستاً أخرى لتأييد كلامه وهي:

أ- إن كان هذا الرجل، أي موسى كاذباً في دعوته، كان وبال كذبه عليه، فاتركوه، وإن كان صادقاً في دعواه يصبكم بعض الذي يعدكم به إن خالفتموه من العقاب الدنيوي والأخروي، فاتركوه أيضاً في دعوته.

ب- لو كان موسى مسرفاً متجاوزاً الحد في قوله، كذاباً في ادعائه النبوة، لما هداه الله إلى المعجزات المؤيدة له، ولخذله الله وأهلكه.

ج- يا قومي، قد أنعم الله عليكم بهذا الملك الواسع، وأنتم الغالبون على بني إسرائيل في مصر، فمن الذي يمنعنا من عذاب الله إن حل بنا؟!

فقال فرعون مجيباً الرجل المؤمن: ما أشير عليكم إلا بما أرى لنفسي، وما أدلكم إلا طريق الصواب الذي يحقق الفوز والغلبة، وهو قتل موسى.

د- وقال المؤمن: إني أخشى عليكم إن كذبتم موسى أن يصيبكم مثل ما أصاب الأقوام الذين تحزّبوا على أنبيائهم، وكذبوا رسلهم من الماضين، مثل عادة قوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم كقوم لوط، فقد حل بهم عذاب الله تعالى، ولم يجدوا ناصراً لهم ينصرهم، ولا عاصماً يحميهم، ولا يريد الله إلحاق ظلم بعباده، فلم يهلكهم بغير جرم شديد أو كبير. وهذا تخويف بالعذاب الدنيوي.

هـ- ثم خوفهم العذاب الأخروي بقوله: يا قومي، إني أخشى عليكم عذاب يوم القيامة، حين ينادي الناس بعضهم بعضاً للاستعانة والاستنجاد، وحين تفرّون هاربين من النار، لا تجدون واقياً ولا عاصماً مانعاً يعصمكم من عذاب الله ويحميكم منه، ومن يضلّه الله، فلم يوفقه للرشد والصواب، فلا مرشد له غيره.

٦- وأذكركم بأن تكذيب الرسل موروث لديكم من الأسلاف، فلقد بعث الله لآبائكم يوسف بن يعقوب بالمعجزات الباهرات الدالة على صدقه، فكذبتموه وكذبتم بمن جاء بعده من الرسل، وما زلتم في شك مما أتاكم به، حتى إذا مات أنكرتم بعثة رسول من بعده، فكفرتم به في حياته وبعد موته، ومثل هذا الضلال وسوء الحال، يضل الله كل إنسان لإسرافه في المعاصي وتجاوزه الحدود، وارتيابه في دين الله. وهؤلاء المرتابون الذي يجادلون في آيات الله الكونية والدينية ليبطلوها، بغير حجة واضحة، كبر أو عظم ذلك الجدل بغضاً عند الله وعند المؤمنين، لأنه جدال بالباطل، لا أساس له، أما مقت الله: فهو العذاب والغضب، وأما مقت المؤمنين: فهو هجر الكفار وترك التعامل معهم.

وكما طبع الله على قلوب هؤلاء المجادلين بالباطل المسرفين، فكذلك يطبع أو يختم على جميع قلوب المتكبرين الجبارين.

تحديات فرعون
وإصرار الرجل المؤمن في الدفاع عن موسى

احتدم الجدال بين فرعون والرجل المؤمن من قومه وأتباعه حول شأن موسى عليه السلام، فلجأ فرعون إلى التحدي الحسي، وإقامة برج شاهق في السماء للاطلاع على إله موسى، مقراً به أولاً، ثم مكذباً به ثانياً، وصمم الرجل المؤمن على موقفه المدافع عن موسى عليه السلام، ونصح قومه ودعاهم إلى الإيمان بالله وحذَّرهم من الاغترار بالدنيا، وحثهم على العمل للآخرة لدوامها، وقارن بين دعوته لهم إلى الإيمان بالله تعالى طريق النجاة، وبين دعوتهم إياه لعبادة الأصنام طريق الهلاك والعذاب، وهذا في الآيات الآتية:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا[1] لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ[2] ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ[3] ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ[4] أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٠/٣٦-٤٦].

المعنى: نادى فرعون وزيره هامان والناظر في أموره قائلاً: يا هامان ابن لي قصراً مشيداً عالياً، لعلي أصل إلى طريق السماء، فأبحث عن إله موسى، وهو لا يريد بذلك إلا الاستهزاء منه وإنكار رسالته، وإني لأظن موسى كاذباً في ادعائه بأن له إلهاً غيري.

ومثل ذلك التزيين المفرط في الحماقة والبلادة، زُين لفرعون الجبار سوء عمله وقُبح صنعه، من الشرك والتكذيب، فتمادى في الغي والطغيان، وحُجب عن طريق الهدى والعدل والصواب، ولم يكن كيده أو مكره إلا في خسار وضياع، ثم تابع

---

(١) الصرح: كل بناء عظيم رفيع القدر. (٢) أي الطرق. (٣) خسار وهلاك. (٤) أي حقاً، أو لا جرم: بمعنى ثبت ووجب.

مؤمن آل فرعون مواعظه لقومه، فقال: يا قومي، اتبعوني فيما أقول لكم وأدعوكم إليه، أدلكم على طريق الرشاد والخير والسداد: وهو اتباع دين الله وأمره. ثم حذرهم من فتنة الدنيا وزهّد فيها، فقال: يا قومي، ليست هذه الحياة الدنيا إلا مجرد متاع يُستمتَع به قليلاً، ثم يزول وينتهي بالموت، وإن الآخرة هي دار الاستقرار والبقاء والخلود، أي إن الدنيا شيء يتمتع به قليلاً، وعلى المرء الرغبة في الآخرة.

من ارتكب معصية، فلا يجزى في الآخرة إلا مثلها، عدلاً من الله، ومن عَمِل العملَ الصالح: وهو اتباع أمر الله واجتناب نهي الله، وهو مصدق بالله وبرسله، فهؤلاء هم لا غيرهم أهل الجنة التي يرزقون فيها رزقاً وفيراً بغير عدّ وتقدير، ولا مقصور على حجم العمل، فضلاً من الله ونعمة، أي إن جزاء السيئة مثلها فقط، وجزاء الحسنة لا يقتصر على المثل، بل يتجاوزه لما شاء الله.

ويا قومي، أخبروني عنكم، ما بالي أدعوكم إلى النجاة من النار ودخول الجنة، بالإيمان بالله تعالى وعبادته وطاعته وتصديق رسله، وتدعونني إلى عمل أهل النار، وهو الشرك وعبادة الأصنام؟! أي إن الدعاء إلى طاعة الله وعبادته وتوحيده: هو الدعاء إلى سبب النجاة، ودعاؤهم إياه دعاء إلى سبب دخول النار. ثم فسر الفرق بين الدعوتين في أن الواحدة كفر وشرك، والأخرى دعوة إلى الاعتزاز بالله تعالى وغفرانه.

إنكم تدعونني لأمر خطير: وهو الكفر بالله والإشراك به، مما لم يقم أي دليل على صحته وقبوله، وأنا أدعوكم إلى الإيمان بالمتصف بصفات الألوهية الحقة، من العزة الكاملة، والعلم الشامل، والإرادة التامة، والمغفرة الواسعة، والتعذيب الشديد، فآمنوا به يغفرلكم ويعزكم. وحقاً إن دعاءكم لعبادة الأصنام والأنداد ليس لها أي دعوة مستجابة، فلا تجيب الداعي، سواء في الدنيا والآخرة، والواقع المتحقق أن مرجعنا ومصيرنا إلى الله بالموت، ثم بالبعث في الآخرة، فيجازى كل إنسان

بعمله، وأن المسرفين المتجاوزين الحد في المعاصي: هم أهل النار الذين يصيرون إليها.

وسوف تتذكرون وتدركون صدق قولي لكم من الالتزام بأوامر الله ونواهيه وثمرة نصحي وإرشادي، حين ينزل بكم العذاب، وإني أفوض أمري إلى الله وأستعين به ليعصمني من كل سوء، فإن الله مطلع على أمور عباده، خبير بهم، فيهدي مستحق الهداية المستعد لها، ويضل مستحق الضلالة الحريص عليها.

وأما مصير الرجل المؤمن من آل فرعون: النجاة، حيث حفظه الله، وحماه في الدنيا، من سوء مكرهم، وتآمرهم على قتله، وأحاط سوء العذاب بآل فرعون في الدنيا بالغرق في البحر، وسيعذبون في الآخرة.

ويعرض آل فرعون بأرواحهم في قبورهم على النار في الصباح والمساء من أيام الدنيا إلى قيام القيامة، أي إنهم يعذبون في القبور، ويقال للملائكة يوم القيامة: أدخلوا آل فرعون في جهنم، حيث يكون العذاب فيها أشد وأعظم، قال الهذيل بن شرحبيل والسدي: إن أرواح آل فرعون في أجواف طير سود، تروح بهم، وتغدو إلى النار.

الجدل بين أهل النار

يبادر الإنسان حينما يقع في فخ الحقيقة والجزاء إلى تقاذف المسؤولية ولوم الآخرين، وينسى نفسه وتقصيره، وذلك في الدنيا، أو في حال العذاب في نار الآخرة، وهذا واقع قائم بين السادة والأتباع، حيث يشتد الجدل بينهم في ذلك المقر، ويحاول كل فريق إلصاق التهمة بغيره والتملص من المؤاخذة، ولكن لا جدوى ولا فائدة من هذا الجدال، ولا يقبل عذر من المقصرين والظلمة، ويكون الفوز

والنصر المحقق والمؤكد لأهل الإيمان، سواء في الدنيا أو في الآخرة، وصف الله تعالى لنا هذا اللون من الجدال الذي سيحدث بين أهل النار في الآيات الآتية:

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ(١) فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟(٢) لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟(٣) إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ(٤) ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾ [غافر: ٤٠/٤٧-٥٥].

المعنى: اذكر أيها النبي لقومك على سبيل العظة والعبرة وقت تخاصم وتجادل الكفار في النار، ومنهم فرعون وقومه، فيقول الأدنياء والأتباع للرؤساء والأشراف والكبراء: إنا كنا تابعين لكم، وقد أطعناكم فيما دعوتمونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال، فهل أنتم تدفعون عنا جزءاً من العذاب أو تتحملون عنا بعضه!

فأجابهم المستكبرون: إننا جميعاً في جهنم، وإن الأمر قد انجزم بحصول الكل منا ومنكم فيها، وإن حكم الله تعالى قد نفذ واستمر بذلك، فكيف نغني عنكم؟ فلو قَدَرنا على دفع شي من العذاب، لدفعناه عن أنفسنا، إن الله قضى قضاءه العادل المبرم بين العباد، بأن فريقاً في الجنة، وفريقاً في السعير.

---

(١) أي يتخاصمون ويتجادلون. والمحاجة: التحاور بالحجة والخصومة. (٢) أي في القدر والمنزلة في الدنيا. (٣) أي أشراف الكفار وكبراؤهم. (٤) جمع شاهد.

ولما يئس الضعفاء من السادة، طلبوا من خزنة جهنم تخفيف العذاب، فقالوا لهم: ادعوا الله ربكم لعله أن يخفف عنا مقدار يوم من العذاب. وذلك لأنهم علموا أن الله تعالى لا يستجيب لهم ولا يسمع دعاءهم.

فرد خزنة جهنم عليهم على سبيل التوبيخ والإلزام بالحجة: أما جاءتكم الرسل في الدنيا بالحجج والأدلة القاطعة على توحيد الله تعالى، والتحذير من سوء العاقبة؟! قالوا: بلى قد جاءتنا الرسل، فكذبناهم، ولم نؤمن بهم، ولا بما جاؤوا به من الأدلة والمعجزات على صدقهم.

فقالت لهم الخزنة تهكماً: إذا كان الأمر كما ذكرتم، فادعوا أنتم لأنفسكم، فنحن لا ندعو لمن كفر بالله، وكذّب رسله، بعد مجيئهم بالحجج القاطعة، وليس دعاء الكافرين بالله ورسله إلا في ضياع وبطلان، لا يقبل ولا يستجاب. والمراد: فادعوا أيها الكافرون الذين لا معنى لدعائكم، وليس دعاؤنا إلا لأهل الحق والإيمان والطاعة.

ثم أخبر الله تعالى أن ينصر رسله عليهم السلام والمؤمنين في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ويوم يقوم الشهود من الملائكة والنبيين وصالحي المؤمنين، للشهادة بأن الرسل قد بلّغوا الرسالة، وأدّوا الأمانة.

وقيام الشهود يكون حين تقوم القيامة، حيث لا تنفع معذرة الظالمين المشركين، ولا تقبل منهم فدية، لأن عذرهم واهٍ، وشبهتهم زائفة، وهم مطرودون مبعدون من رحمة الله، ولهم شر ما في الآخرة: وهو النار والعذاب فيها.

ثم أخبر الله تعالى عن إرسال الرسل، فليس محمد ﷺ وحده مرسلاً، وليس هو ببدع من الرسل، فلقد أرسل الله موسى عليه السلام بالتوراة والنبوة، تأنيساً لمحمد عليه السلام، وتذكيراً بما كانت العرب تعرفه من أمر موسى عليه السلام. وكانت

التوراة هادية لقوم موسى بالشرائع والأحكام، وأورث الله بني إسرائيل التوراة، فهو إمام ونبراس لهم، وهداية وإرشاد، وتذكير لأهل العقول السديدة بما فيها من أحكام، فكأن بعضهم يرث التوراة عن بعض.

وإذا كان النصر مقرراً في النهاية للرسل وأتباعهم، فاصبر أيها الرسول محمد على أذى المشركين، كما صبر الذين من قبلك من المرسلين، فإن عاقبة الصبر خير، ووعد الله بالنصر حق ثابت لا يخلفه أبداً، ودوام على الاستغفار لذنبك، من ترك الأولى والأفضل، أو أن المراد أمته، أي إنه إذا أُمر هو بالاستغفار فغيره أولى، وستكون عاقبة أمرك كعاقبة أمر موسى، ونزِّه الله تعالى عن كل شريك ونقص، مقترناً تسبيحك بحمد الله وشكره، على الدوام، في أوائل النهار وأواخره.

أسباب المجادلة في آيات الله وتفنيدها

يلجأ بعض المتشككين إلى الجدل في آيات الله، بقصد التشكيك ومحاولة الدفاع عن الباطل، بغير حجة مقبولة، ولا برهان سليم، وقد يكون الجدل حول إنكار البعث والقيامة، كشأن الماديين الملحدين، ويتعامى هؤلاء جميعاً عن حقائق الأشياء وأسباب وجودها، وعن الأدلة الكونية الدالة على ضرورة الإيمان بوجود الله وقدرته وحكمته، وقد ذكر الله تعالى في الآيات الآتية عشرة أدلة على وجوده ووحدانيته وقدرته، لإثبات وجود القيامة، منها: خلق السماوات والأرض، فلا يوجد شيء بالصدفة بدون موجد، ومنها تعاقب الليل والنهار، وجعل الأرض قراراً والسماء بناء، وخلق الإنسان في أحسن صورة، ورزقه من الطيبات، واتصاف الله تعالى بالحياة الأبدية الذاتية والوحدانية، وهذا ما تضمنته الآيات الآتية بمناسبة الأمر بعبادة الله وطاعته:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ[1] فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ[2] ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ[3] ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾

[غافر: ٤٠/٥٦-٦٥].

أخبر الله تعالى عن أولئك المشركين الكفرة الذين يجادلون في آيات الله بغير حجة ولا برهان، وهم يريدون بذلك طمسها، أنهم ليسوا على شيء فلا حجة لهم ولا سلطان أو برهان مقبولاً لهم، ليس في صدورهم وضمائرهم إلا التكبر والتعاظم عن قبول الحق، وحسد النبي محمد ﷺ على ما آتاه الله من الفضل والنبوة، ولا يستطيعون بلوغ آمالهم بسبب ذلك الكبر، ولا محققي إرادتهم في أن تكون لهم الرياسة والنبوة بعد النبي ﷺ، فاستعذ بالله أيها النبي والتجئ إليه في كل أمورك، من كل

(١) أي إن في نفوس قريش كبراً وأنفة على النبي حسداً منهم على فضل الله عليه، وليسوا ببالغي آمالهم وإرادتهم فيه. (٢) صاغرين أذلاء. (٣) أي تصرفون.

مستعاذ منه، ومن شرورهم، لأن الله يسمع أقوالك وأقوال مخالفيك، وهو بصير بمقاصدهم ونياتهم، ومجازٍ كل واحد بما استوجبه.

ثم وبخ الله تعالى هؤلاء الكفار المتكبرين على ضلالهم، وذكَّرهم بعظمته وقدرته، بأدلة كثيرة، منها أن خلق السماوات والأرض وما فيهما أكبر بكثير من خلق الناس، بدءاً وإعادة، ولكن أكثر الناس لا يعلمون بعظيم قدرة الله، ولا يتأملون بهذه الحجة الدامغة الدالة على قدرة الله تعالى.

ومثل المجادل بالباطل في مواجهة المحق والمتفكر والمتعظ كمثل الأعمى والبصير، ولا يتساوى الاثنان، فلا يتساوى المجادل بالباطل أو الكافر الذي لا يتأمل بآيات الله الكونية، ولا المجادل بالحق أو المؤمن الذي يتفكر في آيات الله ويتعظ بها. وكذلك لا يستوي المحسن بالإيمان والذي يعمل الصالحات من أداء الفرائض والطاعات، والمسيء بالكفر والعاصي الذي يُغفل دور الآيات ويتنكر للطاعات، فما أقل ما يتذكر كثير من الناس ويتعظ بهذه الأمثال!

ثم أخبر الله تعالى عن وقوع القيامة حتماً، فإن يوم القيامة آت لا ريب في مجيئه ووقوعه، فآمنوا أيها الناس به إيماناً قاطعاً، لا شك فيه، ولكن مع الأسف أكثر الناس لا يؤمنون ولا يصدقون بالآخرة.

وطريق النجاة في الآخرة واضح وهو طاعة الله وعبادته، وقال الله: من دعاه أجابه، فالدعاء مخ العبادة، وإن الذين يتكبرون ويتعاظمون عن دعاء الله وعبادته وحده، سيدخلون حتماً جهنم صاغرين أذلاء.

ومن أدلة قدرة الله على البعث وغيره: أنه سبحانه أوجد تعاقب الليل والنهار وجعل الليل للسكن والهدوء والراحة، وجعل النهار مضيئاً منوَّراً لإبصار الحوائج، وطلب المعايش، ومزاولة الصناعة والتجارة والزراعة وغيرها من الحِرَف والمهارات

والخبرات، وإن الله تعالى بهذه النعمة وغيرها هو المتفضل على الناس، ولكن أكثر الناس لا يشكرون النعم.

والله وحده هو الرب المتصرف في كل شيء المدبر لكل أمر، خالق الأشياء كلها، لا إله ولا معبود في الوجود غيره، فكيف تُصرفون أيها المشركون عن عبادته؟! ومثل هذا الانصراف عن عبادة الله، يصرف الجاحدون بآيات الله، المنكرون توحيده.

والله هو الذي جعل الأرض محل استقرار وثبات، والسماء مبنية بناء محكماً لا خلل فيه، ولا يتهدم ولا يتصدع، وخلق الناس في أحسن صورة، وأجمل نظام وتقويم، ورزقهم من طيبات الرزق ولذائذه، ذلكم المتصف بهذه الصفات الجليلة: هو الله رب العالمين من الإنس والجن، المنزه عن جميع النقائص. والله هو الحي الباقي الدائم الذي لا إله غيره، فاعبدوه مخلصين له الطاعة والعبادة، موحدين له، صاحب الحمد، المستحق للشكر والثناء، رب العالمين من الملائكة والإنس والجن.

النهي عن عبادة غير الله

حاول المشركون الوثنيون في مكة استمالة النبي ﷺ لمنهاجهم، وتخفيف حملاته على دين الآباء والأجداد، والتوصل إلى أوساط الحلول.

فقال الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة -فيما رواه جويبر عن ابن عباس -: يا محمد، ارجع عما تقول بدين آبائك، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الآية.

قررت هذه الآية الكريمة النهي الشديد عن عبادة الأصنام والأوثان، وبيَّنت الآيات الآتية بعدها سبب النهي: وهو البينات التي جاءت النبي ﷺ من ربه، من دلائل الآفاق والأنفس، قال الله تعالى واصفاً ذلك:

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ[1] لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾ [غافر: ٤٠/٦٦-٦٨].

جاءت هذه الآيات الشريفة بعد بيان صفات الله تعالى، بأنه الحي القيوم، وذلك يقتضي فساد حال الأصنام، وأنها موات جماد هامدة، ليس فيها شيء من صفات الله تعالى، التي منها صدور الأمر من لدنه، وإيجاد الأشياء، وتدبير الأمر كله، وعلمه بالكل، مما يدل دلالة قاطعة على أنه حي لا إله إلا هو.

أمر الله تعالى نبيه ﷺ بعد هذا: أن يصدع بأنه نُهي عن عبادة الأصنام التي عبدها الكفار من دون الله سبحانه وتعالى، وأمر بعدها بالإسلام الذي هو الإيمان والأعمال.

قل أيها الرسول لمشركي قومك المكيين: إن الله تعالى ينهاني عن عبادة أحد من غير الله تعالى من الأصنام والأنداد والأوثان، حين جاءتني الأدلة القاطعة من آي القرآن والبراهين العقلية الدالة على التوحيد، وأمرت بالإسلام لله والانقياد لأوامره، وإخلاص الدين له، وإعلان الإيمان وأداء الأعمال المفروضة، والاستسلام لرب العالمين من إنس وجن، والخضوع له بالطاعة، والرضا بما أمر ونهى.

ثم ذكر الله تعالى أربعة أدلة من دلائل الآفاق والأنفس تدل على وحدانية الله وهي:

---

(١) أنقاد لله تعالى.

أولاً- إن الله تعالى خلق أبا الإنسانية الأول آدم عليه السلام من التراب، وجعل ذريته أيضاً من تراب، لأن كل مخلوق من المني ناشئ من الدم، والدم من الغذاء، والغذاء من النبات، والنبات من الماء والتراب، فكان كل إنسان متكوناً من التراب، ثم تكاثر النوع الإنساني بما هو معروف من النطفة المنوية، ثم من العلقة (قطعة الدم المتماسكة) ثم من المضغة (قطعة اللحم المتجمدة) ثم ينفخ فيها الروح، ويتم ولادة الأطفال، ثم يبلغ الولد مرحلة النضج واكتمال العقل والقوة: وهي بلوغ الأشّد، ثم الصيرورة إلى مرحلة الشيخوخة والهرم، وقد يتوفى الله بعض الناس قبل مرحلة الشيخوخة، إما في الكهولة أو الشباب أو الطفولة، وكل هذه المراحل ليتوصل كل إنسان إلى أجله المحدود المقدَّر له: وهو وقت الموت، ثم وقت القيامة، ولعلكم أيها الناس تفكرون في هذه المراحل، وتدركون ما تتطلبه كل مرحلة من عناية إلهية.

وقوله تعالى بعد سرد مراحل أو أطوار الخلق الإنساني: ﴿وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ يراد به: هذه الأصناف كلها مخلوقة ميسرة من الله، ليبلغ كل واحد منها أجلاً مسمى لا يتعداه ولا يتخطاه، وليكون معتبراً متعظاً، ولعلكم أيها البشر تعقلون الحقائق إذا نظرتم في هذا، وتدبرتم حكمة الله فيه، ففي هذا الانتقال والتدرج أو التطور في الخلق دلالة على وجود الله تعالى.

ثانياً- أي الدليل الثاني-أن الله هو القادر على الإحياء والإماتة، فالله وحده هو الذي يحيي المخلوقات ويميتها، وهو المتفرد بذلك، فإذا قضى وقدر أمراً يريد إنفاذه وإيجاده، وإخراج المخلوق من العدم، فإنما يقول له ﴿كُن﴾ فيكون ويوجد، من غير توقف على شيء آخر، ولا معاناة ولا كُلفة، أي إن كل مخلوق يوجد بإرادة الله وحده، مما يدل على وجوده سبحانه.

فقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ يراد به إنفاذ الإيجاد وإظهار المخلوق، وإيجاد الموجودات هو بالقدرة الإلهية، واقتران الأمر بالقدرة: هو عظمة في الملك، وإظهار للقدرة، وتخضيع للمخلوقات. وبه يتبين أن إيجاد المخلوق يعتمد على أمرين: الأمر الإلهي بالإيجاد، وتلبّس القدرة الإلهية بإيجاده وإظهاره، لا قبل ذلك، ففي حال العدم لا يظهر الشيء إذ لا يوجد الأمر، ولا شي بعد الإيجاد، لأن ما هو كائن، لا يقال له: كن.

جزاء المجادلين بالباطل

الحياة الإنسانية إما أن تزدان وتسمو بمواقف الحق والجرأة والإيمان، وإما أن تهبط وتنحدر بمواقف الباطل والكفر والخذلان، والناس بين هذين الموقفين في مرصد التاريخ، فإن كانوا من أصحاب الموقف الأول، خلّد التاريخ ذكرهم، وكانوا أسوة الأجيال، وإن كانوا من أصحاب الموقف الثاني طواهم التاريخ، ولم يُذْكَروا إلا للعبرة والشماتة، وهكذا كان المعارضون لدعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ورسالته عبرة للتاريخ، فإنهم جادلوا بالباطل في شأن الرسالة النبوية والكتاب الذي جاء به، وكذبوا بهما، فاستحقوا ويلات العذاب، كما تصف هذه الآيات الشريفة:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ[1] ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ[2] فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ[3] ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ

(١) أي يبعدون عن الإيمان بربهم. (٢) أي القيود الموضوعة في الأعناق. (٣) أي يجرون بعنف بالسلاسل إلى النار ويحرقون فيها.

تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ[1] ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [غافر: ٤٠/٦٩-٧٨].

هذا موقف المعاندين أهل الباطل، فانظر إلى هؤلاء المجادلين في آيات الله الواضحة والدالة على الإيمان، والإقرار بالوحدانية والبعث، كيف يصرفون عنها ويتْركون الهدى إلى الضلال؟

إنهم هم الذين كذَّبوا بالقرآن، وبرسالات الرسل الداعية إلى التوحيد، وإخلاص العبادة لله، والشرائع الصالحة لحياة الإنسان، فسوف يعلمون مصائرهم الوخيمة وعواقب السوء المترتبة على مواقفهم.

إنهم سوف يعلمون حين تُجعل القيود في أعناقهم، ويسحبون بالسلاسل في الحميم: وهو الماء المتناهي في الحرارة، فيحرقون ظاهراً وباطناً.

ثم يقال لهم من الملائكة توبيخاً وتقريعاً: أين الأصنام والشركاء التي كنتم تعبدونها من دون الله؟ قالوا مجيبين: لقد غابوا عنا وذهبوا فلم ينفعونا، بل في الواقع تبينا أننا لم نكن نعبد شيئاً له قيمة وجدوى أو نفع، ومثل ذلك الضلال، يضل الله الكافرين على ممر الزمان، حيث أوصلتهم إلى النار، بضلالهم وتركهم سادرين في هذا الضلال، وعلى هذا اللون من الاختلاط وبيان فساد الذهن والنظر، وهذا

(١) أي تبطرون وتتكبرون، فالمرح: فرح بعدوان ..

الترتيب، بكشف الحقائق ومصادقة الواقع، واضطراب الأقوال، واللجوء إلى الكذب، فيقولون: بل لم نكن نعبد شيئاً.

وذلكم العذاب اللاحق بهم، والإضلال بتركهم في ضلالهم، بسبب ما كنتم تظهرون في الدنيا من الفرح بمعاصي الله، والابتهاج بمخالفة الرسل والكتب الإلهية، وبسبب موقف البَطَر والأَشَر والتكبر، فهذا جزاء الشرك والوثنية. وجزاؤكم أيها المشركون الإدخال في أبواب جهنم السبعة المقسومة لكم، المؤدية إلى طبقاتها ودركاتها، كما جاء في آية أخرى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٤٤].

فبئس موضع الإقامة والمأوى الذي فيه الهوان والتعذيب لمن تكبر عن آيات الله وبراهينه القاطعة. ثم آنس الله تعالى نبيه محمداً ﷺ ووعده بالنصر بقوله: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي اصبر أيها النبي على تكذيب قومك، فإن وعد الله بالنصر عليهم وإظهار أمرك ودعوتك والانتقام منهم كائن واقع لا محالة، إما في حياتك حيث تراه وتقرّ به عينك، وإما بعد موتك، حيث يصيرون ويرجعون إلى أمرنا وتعذيبنا.

أي إما أن نرينك في حال حياتك بعض ما وعدناهم به من العذاب، كالقتل، والأسر يوم بدر وغيره، وذلك بعض ما يستحقونه، وإما أن نتوفينك قبل إنزال العذاب بهم، فإلينا مصيرهم يوم القيامة. وهذا كما جاء في آية أخرى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٤١-٤٢].

ثم رد الله على العرب الذين قالوا: إن الله تعالى لا يبعث بشراً رسولاً، واستبعدوا ذلك، فلقد أرسلنا رسلاً وأنبياء كثيرين، من قبلك أيها النبي الرسول، إلى أقوامهم، منهم من أخبرناك بأخبارهم، وهم أربعة وعشرون، ومنهم من لم

نخبرك عنهم شيئاً، ولم يكن لرسول من الرسل الإتيان لقومه بمعجزة خارقة للعادة إلا بأمر أو إذن من الله له في ذلك، فإذا حان وقت العذاب في الدنيا أو الآخرة، قضي بالعدل فيما بينهم، وخسر كل مبطل، وحصل على فساد آخرته. فتكون الآية توعداً لهم، أو إذا أراد الله إرسال رسول وبعثة نبي، قضى الله ذلك، وأنفذه بالحق، وخسر المبطلون، فتكون الآية على هذا التأويل رداً على قريش في إنكارهم أمر محمد ﷺ.

نعم الله وتهديد أهل الجدل بالباطل

لا يمكن لأحد في العالم عنده مُسْكة من عقل أن ينكر فضل الله ونعمه على الناس، لأن الواقع المشاهد حجة دامغة، ولا يستطيع أحد إنكاره أو تجاوزه، وما أكثر الأدلة الحسية الميدانية من التاريخ في تعذيب المبطلين المكابرين المجادلين في آيات الله تعالى، لذا كان تحدي الواقع سبباً موجباً للتهديد بالعذاب، وإيقاعِه على أولئك المعاندين المغترين بدنياهم، المستهزئين بآيات الله، وإذا وقع العذاب، حدث الندم الشديد، ولم ينفع الإيمان والاعتذار في ذلك الوقت، كما تصور هذه الآيات:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ[1] تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ[2] بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا[3] قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ

(١) أي السفن. (٢) نزل وثبت وأحاط، وهي مستعملة في الشر. (٣) شدة عذابنا.

﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٤٠/ ٧٩-٨٥].

هذه آيات للعبر، وتعداد النعم، والاحتكام للواقع المشاهد، فالله تعالى جعل لكم أيها البشر الأنعام وهي الأزواج الثمانية من الإبل والبقر والغنم والمعز. فبعضها في الغالب للركوب كالإبل، وبعضها للأكل وحرثِ الأرض عليها كالبقر، وبعضها للأكل وشرب اللبن كالغنم، وكلها تتكاثر وتتوالد، ويستفاد من أصوافها وأوبارها.

فكلمة (منها) الأولى في قوله ﴿لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا﴾ للتبعيض لأن المركوب منها هو الإبل خاصة، وكلمة (منها) الثانية ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ لبيان الجنس، لأن الجميع منها يؤكل، ولكم أيها البشر في الأنعام منافع أخرى غير الركوب والأكل من صوف وشعر ووبر، وزُبد وسمن، وجبن وغير ذلك، ولحمل الأثقال على بعضها إلى البلاد النائية بيسر وسهولة، وعلى الإبل وغيرها في البر، وعلى السفن في البحر، تحملون وتنقلون من بلد إلى آخر.

والله تعالى يريكم أيها الناس عياناً هذه الآيات والبراهين في الآفاق والأنفس، والتي هي كلها ظاهرة دالة على كمال قدرته ووحدانيته، مما لا سبيل لإنكاره، فأي آية من آياته الباهرة تنكرون؟ إنها كلها مشاهدة مرئية، لا تستطيعون إنكارها، ففي كل شيء له آية تدل على وحدانيته، لذا فإنكم على سبيل التوبيخ كيف تنكرون آية منها؟

ثم احتج الله تعالى على قريش بما يظهر في الأمم السالفة من نقمات الله، مع أنهم كانوا أكثر عدداً، وأشد قوة أبدان وممالك، وأعظم آثاراً في المباني والأفعال من قريش والعرب. أفلم يسر هؤلاء المشركون المجادلون بالباطل في آيات الله، فينظروا في أسفارهم كيف كان مصير الأمم السابقة التي عصت الله تعالى، وكذَّبت رسلها،

ويشاهدوا آثارهم القائمة في ديارهم نتيجة العقاب والتعذيب، مع أنهم كانوا أكثر من مشركي قريش عدداً، وأقوى منهم أجساداً، وأوسع منهم أموالاً، وأبقى في الأرض آثاراً بالمباني والقصور والحصون والمزارع والسدود، فلما حلَّ بهم العذاب، لم ينفعهم مالهم ولا أولادهم، ولا أغنى عنهم كسبهم ولا حالهم شيئاً، حين جاءهم عذاب الله وأخذه.

فلما جاءت الرسل بالحجج والبراهين الواضحة الدالة على صدق نبوتهم ورسالتهم، أعرضوا عنهم، ولم يلتفتوا إليهم، وفرحوا بما لديهم من العلوم والمعارف، وهي الشبهات والضلالات الزائفة التي ظنوها علماً نافعاً، وأحاط بهم العذاب من كل جانب، ونزل بهم من العذاب الذي كذبوا به ما كانوا يستبعدون وقوعه، استهزاء وسخرية. وهذا كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الروم: ٣٠/ ٧].

ثم أخبر الله تعالى عن حالة بعض أولئك المعذبين الذين آمنوا بعد تلبّس العذاب بهم فلم ينفعهم ذلك. إنهم حينما عاينوا وقوع العذاب بهم، صدقوا بالله ووحَّدوه، وكفروا بمعبوداتهم الباطلة التي اتخذوها شركاء لله، وهي الأصنام، فلم ينفعهم إيمانهم شيئاً عند معاينة العذاب وشدة الانتقام، لأنه إيمان اليأس والإلجاء والقهر، فهو إيمان قسري عن إكراه فلا يقبل، لأنه في تلك الحال لا يبقى مجال للتكليف وقبول الإيمان.

ثم ذكر الله تعالى حكمه العام في الأمم، وهو أن هذا العذاب هو حكم الله وطريقته في جميع من تاب عند معاينة العذاب بأنه لا يقبل، وخسر الكافرون وقت رؤيتهم بأس الله ومعاينتهم لعذابه، والكافر خاسر في كل وقت، ولكن يتبين لهم خسرانهم إذا رأوا العذاب.

تفسير سورة فصلت أو السجدة

موقف المشركين من القرآن

عارض المشركون المكيون النبي والقرآن معارضة شديدة، اتسمت بالعناد والاستهزاء والتحدي، فاستحقوا التهديد بقواصف العذاب، وصواعق العقاب، يتبين ذلك من سبب نزول أوائل سورة فصّلت أو سجدة المؤمن، أو المصابيح، التي هي مكية بإجماع المفسرين، يروى أن عقبة بن ربيعة ذهب إلى رسول الله ﷺ ليُبيِّن له أمر مخالفته لقومه، وليحتجَّ عليه فيما بينه وبينه، وليُبْعد ما جاء به، فلما تكلم عتبةُ، قرأ رسول الله ﷺ ﴿حمٓ ۝١﴾ ومرّ في صدر هذه السورة، حتى انتهى إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣﴾ فأُرعد الشيخ، وقفّ شعره[1]، وأمسك على فم رسول الله ﷺ بيده، وناشده بالرّحم أن يُمسك، وقال حين فارقه: «والله لقد سمعتُ شيئاً ما هو بالشِّعْر ولا بالسّحر ولا بالكهانة، ولقد ظننت أن صاعقة العذاب على رأسي». وهذه هي بداية هذه السورة:

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ[2] مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ[3] وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلْ إِنَّمَآ

(١) أي أخذته الرعدة، وقام من الفزع. (٢) أي أغطية، جمع كِنان: وهو الجَعْبة: وعاء السهام. (٣) أي صمم.

أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ [فصلت: ٤١/١-٨].

افتتحت السورة بالحروف المقطعة: ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ للتنبيه ولفت النظر لما يعرض فيها، وتحدي العرب بإعجاز القرآن المتكون من الحروف العربية الأبجدية أو الهجائية، وتقترن هذه الحروف عادة بالكلام عن القرآن، للدلالة على الصلة بينه وبين مكوناته العربية، وذكر هنا أن القرآن الكريم منزل من الله تعالى المتصف بالرحمة الواسعة والدقيقة، فقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ صفتا رجاء ورحمة لله تعالى. وهذا الكتاب فصلت آياته، أي بُيِّنت بياناً كافياً، وفسِّرت معانيه، وتميز حلاله وحرامه، وزجره وأمره ونهيه، ووعده ووعيده، وأنزله الله كتاباً مقروءاً باللغة العربية، موضَحاً لقوم يعلمون أن القرآن منزل من عند الله، ويعلمون معانيه لنزوله بلغتهم، ويعلمون الأشياء، ويعقلون الدلائل ويتأملون بنظر ثاقب بمشتملاته.

وهذا القرآن الذي أنزله الله يبشر المؤمنين بالجنة لاتباعهم له، وينذر الكافرين بالنار لمخالفتهم أحكامه، ولكن أكثر الكافرين أعرضوا عما اشتمل عليه، من الإنذارات والبشائر، لأسباب ثلاثة وهي:

- إنهم قالوا: قلوبنا في أغطية تحجز ما بيننا وبينه، وفي آذاننا صمم، أو ثقل سمع يمنعها من استماعه، ومن بيننا وبينك ساتر يستر عنا رؤيتك، ويمنعنا من إجابتك ودعوتك، فالحجابُ: هو مخالفة النبي إياهم، ودعوته إلى الله تعالى دون أصنامهم، هذه الحواجز الثلاثة تمنعنا من قبول دعوة النبي، فاعمل على دينك وطريقتك، إننا عاملون على ديننا وطريقتنا، ولا نتبعك. فقوله تعالى: ﴿فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ يحتمل أن يكون القول تهديداً، ويحتمل أن يكون متاركة محضة. ثم أمر الله نبيه أن يصدع أو

يجهر بتبليغ التوحيد والرسالة الإلهية: فقل أيها الرسول مجيباً قومك: ما أنا إلا بشر كواحد منكم، لولا نزول الوحي علي، وخلاصة هذا الوحي: العلم والعمل، أما العلم: فأساسه معرفة توحيد الله، لأن الله تعالى بدليل خلق الكون وتسييره واحد لا شريك له، فاستقيموا إليه على محجة الهدى وطريق الشرع والتوحيد، بالعمل الصالح والعبادة الخالصة له، واستغفروه من الذنوب السابقة، وأولها الشرك بالله تعالى.

ثم هدد الله المشركين على موقفهم المعارض، والمناوئ لدعوة التوحيد والحق، ومضمون التهديد والوعيد: ويل: كلمة تهديد أو واد في جهنم، للمشركين الذين أشركوا مع الله إلهاً آخر، ولا يؤدون الزكاة للمحتاجين لكراهيتهم الناس، وهم جاحدون بالآخرة، منكرون لها. والزكاة: إما زكاة المال فهي قنطرة الإسلام، وذلك بالمعنى العام للزكاة، وإما زكاة النفس وهي (لا إله إلا الله) أساس التوحيد، وهذا رأي الجمهور، كما في قول موسى لفرعون: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ [النازعات: ١٨/٧٩]. ويرجح هذا التأويل أن الآية من أوائل السور المكية، وزكاة المال نزلت بالمدينة، فهي زكاة القلب والبدن، أي تطهيرهما من الشرك والمعاصي.

وبعد تهديد المشركين، وعَد الله المؤمنين بالنجاة، وذكر الله حالة الذين آمنوا لمقارنتها بحال الكفار المذكورين، ليتبين الفرق. فالذين صدقوا بالله ورسوله، وعملوا بما أمر الله تعالى وانتهوا عما نهى عنه، لهم عند ربهم ثواب غير منقوص أو مقطوع، أو لا يشتمل على المنّ والأذى، فهو من جهة الله تشريف لا مَنّ فيه، أما أُعطيات البشر: فهي التي يدخلها المَنُّ.

وقال السدّي: نزلت هذه الآية في المرضى والزّمنى (المرضى مرضاً يدوم طويلاً) إذا عجزوا عن إكمال الطاعات، كُتب لهم من الأجر كأصح ما كانوا يعملون.

التوبيخ على الكفر

في مناسبات قرآنية كثيرة، أورد الله تعالى بعض الأدلة على وجوده وتوحيده، وكمال قدرته وحكمته، ومن أهم هذه الأدلة: خلق السماوات والأرض وتقديرها في مدة قليلة، وأتبع ذلك في بعض الآيات كما هنا توبيخ المشركين على كفرهم بخالق الأرض والسماء ومخترعهما، لذا فإنه آن للبشرية أن ينتهي الشرك من ساحتها. ويتخلصوا من العقائد الباطلة، والموروثات الزائفة حتى في عصرنا الحاضر، وهذا ما تضمنته هذه الآيات الكريمة الآتية:

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا[1] ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ[2] مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا[3] وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت: ٤١/٩-١٢].

قل أيها النبي لقومك المشركين على سبيل التوبيخ والتقريع: كيف تكفرون بالله الذي خلق الأرض في مقدار يومين، وتجعلون له شركاء من الملائكة والجن، والأصنام والأوثان، فذلك الخالق المبدع: هو رب العالمين كلِّهم من إنس وجن، وهو مالكهم وخالقهم ومدبّرهم.

والحكمة في خلق هذه المخلوقات في مدة ممتدة، مع قدرته على إيجادها في لحظة واحدة: هي إظهار القدرة في ترتيب ذلك، حسب شرف الإيجاد أولاً فأولاً، وقال قوم: ليعلّم عباده التأني في الأمور والْمَهَل.

---

(١) أي شركاء وأشباهاً وأمثالاً . (٢) الرواسي: هي الجبال الثوابت . (٣) أي جعلها منبتةً للطيبات والأطعمة، وطهوراً إلى غير ذلك من أنواع البركة .

ورتّب الله تعالى أوضاع الأرض لتصلح للعيش عليها، بإيجاد ثلاثة أنواع فيها، وهي إيجاد الجبال الثوابت فيها، لتحقيق الاستقرار والتوازن على سطحها، وحفظها من الاضطراب، ولتخزين المياه والمعادن في باطنها، والإرشاد للطرق في جنباتها، وحفظ الهواء والسحاب لها. ثم جعل الله الأرض مباركة كثيرة الخير، بما أودع فيها من مصادر الثروة المعدنية والمائية والزراعية، وقدّر الله فيها أرزاق أهل الأرض وأقواتهم، وما يصلح لمعاشهم من الأشجار والمنافع، وأتم الله تعالى معايش أهل الأرض في غضون أربعة أيام، مع اليومين المتقدمين للخلق والإبداع، وهذا كما تقول: بنيت جدار داري في يوم، وأكملت جميعها في يومين، أي بالأول، وجعل الله ذلك الخلق في أربعة أيام، مستوية استواء، بلا نقصان ولا زيادة، ومستغرقة بالأعمال، لأجل إجابة سؤال السائلين عن الأمر، والاستفهام عن حقيقة وقوعه، والطالبين ما ينتفعون به، فهم في حكم من سأل هذه الأشياء، إذ هم بحال حاجة إليها.

وكلمة (سواء) مثل كلمة (عَدْل) ترد على المفرد والجمع، والمذكر والمؤنث. وهي مصدر مؤكِّد لمضمر هو صفة لأيام، أي استوت استواء أو سواء.

ثم عَمَد الله وقصد بقدرته واختراعه إلى خلق السماوات وإيجادها، حسبما تقتضي الحكمة الإلهية، فقال للأرض وللسماء: كونا مخلوقتين منقادتين، خاضعتين للأمر الإلهي، طائعتين أو مكرهتين، فاستجابتا، وقالتا بلسان الحال أو المقال: أتينا ووُجدنا طائعين، أي ائتيا على ما ينبغي أن تأتيا عليه من الشكل والوصف. وبه يتبين أن الله تعالى خلق الأرض أولاً، ثم خلق السماء بعدها، ثم بعد السماء، دحا الأرض، أي بسطها بحسب نظرنا، وهذا توفيق بين هذه الآية، وآية: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ [النازعات: ٧٩/ ٣٠].

ثم ذكر الله كيفية تكوين السماوات، وهو أنه تعالى أتم خلق السماوات السبع وأحكمهن، وفرغ منهن في مقدار يومين، فأصبح خلق السماوات والأرض في مقدار

أيام ستة، كما جاء في آية أخرى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٧/٥٤] وغيرها، قال مجاهد: ويوم من الأيام الستة كألف سنة مما تعدّون، والراجح أن هذه الأيام مثل أيام الدنيا.

وأوحى الله في كل سماء أمرها، أي جعل فيها النظام الذي تجري عليه الأمور فيها، وزيَّن سماء الدنيا بكواكب منيرة مضيئة، مشرقة على أهل الأرض، متلألئة كالمصابيح، وجعل المصابيح زينة، وحفظاً من الشياطين الذين يسترقون السمع، ومن الاضطراب في سيرها، ومن اصطدام بعضها ببعض، ذلك النظام البديع هو من ترتيب الله القادر على صنع كل شيء، القاهر كل شيء، والعليم علماً تاماً بمصالح الخلق وحركاتهم وسكناتهم جميعها.

تهديد المشركين بعذاب الدنيا

لم يترك القرآن الكريم وسيلة في خطاب المشركين لإقناعهم بوحدانية الله تعالى، وترك عبادة الأصنام إلا سلكها، ونوّع في عرضها، وأبان ما ينبغي أن يكون عليه العقلاء والسعداء في وجوب المبادرة إلى سماع النصيحة، والإقلاع عن عادة الوثنية وسلوكياتها الضالة، وطرقها الوعرة، وما يترتب عليها من خرافات وأساطير، وحينما لم تُجْد معهم وسائل الإقناع والنقاش، أنذرهم القرآن الكريم بالتعرض لأشد ويلات العذاب وألوان العقاب، مثل الذي أنزله الله بالأمم السابقة العاتية، كما تبين هذه الآيات الشريفة:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً[1] مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم

(١) الصاعقة: الهلاك للإنسان وعذابه.

بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا[1] فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ[2] لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ[3] بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ١٣-١٨].

هذه الآيات من أشد الإنذارات الإلهية لعبدة الأوثان في مكة حين نزول الوحي، ومضمونها: فإن أعرضت قريش والعرب الذين دعوتهم أيها النبي إلى توحيد الله تعالى، عن الإيمان برسالتك وعن هذه الآيات البيِّنات، فأعلمهم بأنك تحذرهم من إصابتهم بمثل العذاب الذي أصاب الأمم التي كذبت، كما يكذِّبون الآن، وأنهم سيتعرضون لصواعق العقاب والهلاك، كما حدث لعاد قوم هود، وثمود قوم صالح.

وذلك حين أتتهم الرسل المتقدمون في الزمان وبعد اكتمال أعمارهم، والذين بلّغوهم رسالات الله، وأمروهم بعبادة ربهم وحده لا شريك له، فكذبوهم وقالوا لرسلهم: لو شاء ربنا إرسال الرسل، لأرسل إلينا ملائكة، لا بشراً مثلنا، فإنا بما أرسلتم به أيها الرسل جاحدون منكرون، فلا نتبعكم. وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أي تقدموا في الزمان، وقوله: ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي بعد اكتمال أعمارهم، وتقدم وجودهم في الزمن.

ثم فصَّل الله تعالى ما حل بقوم عاد وثمود، فأما قوم عاد في الأحقاف في شمال حضرموت من اليمن، فإنهم طلبوا وآثروا ساحة التكبر ووضعوا أنفسهم فيه بغير حق، بل بالكفر والمعاصي، واغتروا بأجسادهم والنعم عليهم، وقالوا: لا أحد

(١) أي ريحاً شديدة البرد أو شديدة الحر أو شديدة الصوت. (٢) أي مشؤومات. (٣) أي الهوان. وأما عذاب الخزي فهو عذاب الذل.

أقوى منا حتى يقهرنا، فرد الله عليهم على سبيل التوبيخ: أولم يعلموا، ويتفكروا أن خالقهم الذي أوجدهم هو أشد منهم قوة، فإنه الموجد للشيء، المذهِب متى شاء، وكانوا جاحدين آيات الله، فعصوا الرسل، وأنكروا معجزاتهم وأدلتهم القاطعة المعدَّة للنظر والتأمل، والمنزَّلة من عند الله تعالى.

وعقابهم أن الله تعالى أرسل عليهم ريحاً شديدة التأثير بصوتها، وشديدة البرد والحر، في بضعة أيام مشؤومات متتابعات، لإذاقتهم عذاب الذل والهوان في الدنيا، وعذابُ الآخرة أشد إهانة وإذلالاً من عذاب الدنيا، وهم لا يجدون ناصراً ينصرهم، ولا دافعاً يدفع عنهم العذاب.

وأما قبيلة ثمود في شمال الحجاز نحو الشام إلى وادي القرى، فبيّن الله لهم طريق الحق والهدى والنجاة، فآثروا العمى، أي اختاروا الكفر على الإيمان، وآثروا العصيان على الطاعة، وكذَّبوا رسولهم، وعقروا الناقة معجزة صالح عليه السلام، فأصابهم العذاب الشديد المهلك المهين، بسبب تكسبهم وجناية أيديهم: وهو التكذيب للرُّسل، وجحود رسالاتهم.

وأنقذ الله تعالى من العذاب صالحاً عليه السلام ومن آمن معه برسالته، وكانوا متّقين ربهم، بأداء فرائضه، وترك معاصيه، لم يمسّهم سوء، ولا نالهم من ذلك ضرر أو مكروه.

وهذا الإخبار عن مصائر الكافرين الجاحدين من عذاب الهوان والإذلال، وعاقبةِ من آمن واتقى ونجا بإيمانه، ليبين الله الفرق، ويظهر الشيء ويتميز بضده.

ألم يكف هؤلاء المشركين إنذار الله تعالى بسوء العذاب، ألم يفكروا بسوء المصير، ويوازنوا بينه وبين مصير المؤمنين؟! ولكن القوم كانوا عُمي البصيرة، أخذتهم العزة بالإثم، ولم يتفادوا العقاب الإلهي.

تهديد الكفار بعذاب الآخرة

لم يقتصر القرآن الكريم على تهديد الكافرين والمشركين بعذاب الهوان والإذلال في الدنيا، وإنما جاء التهديد فيه بعذاب القيامة الذي هو أشد وأنكى، وأدوم وأبقى، ووصف الله هؤلاء المهدَدين بأنهم أعداء الله، أي الكفار المخالفون لأمره، وذلك ليكون التهديد أتم في الزجر والتحذير، وحمل المعادي على الصلاح والاستقامة، والرشد والهداية، ومن هدَّد أو أنذر فقد أعذر، ولم يبق مجال للوم والندم، ومحاولة العدول عن الشر والضلال، في يوم لا ينفع فيه الندم، ولا يقبل فيه الإيمان والصلاح، وهذا ما أبانته الآيات الشريفة:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ[1] ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ[2] فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى[3] لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ[4] ﴿٢٤﴾ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ[5] فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [فصلت: ٤١/١٩-٢٥].

المعنى: واذكر أيها النبي لقريش حال جمع الكفار الأعداء: وهم المخالفون لأمره، وسوقهم بعنف في يوم القيامة إلى النار، فهم يوزعون، أي يكفّ ويحبس أولهم على

(١) أي يحجز أولهم ليأتي آخرهم ثم يدفعون ويوزّعون على أنواع النار. (٢) أهلككم. (٣) مأوى ومقام. (٤) أي إن يطلب منهم الاسترضاء، فليس مقبولاً عتابهم. (٥) هيأنا لهم شياطين الإنس والجن.

آخرهم، أي يحجز أولهم حتى يجتمع عليهم آخرهم، ثم يدفعون إلى أنواع النار. وكلمة (يوم يحشر) منصوب بفعل مضمر، تقديره: واذكر يوم.

حتى إذا ما وصلوا إلى النار ووقفوا عليها، يسألون عما فعلوا سؤال توبيخ، فإذا أنكروا شهدت عليهم جوارحهم من السمع والبصر والجلد، بما ارتكبوا من ألوان الشرك والمعاصي، وبما عملوا في الدنيا من سوء الأعمال، وهذا وصف حال من أحوالهم في بعض أوقات القيامة، وذلك عند وصولهم إلى جهنم، فإن الله تعالى سيطلب منهم الإقرار عند ذلك على أنفسهم، ويُسألون سؤال توبيخ عن كفرهم، فينكرون ذلك، ويظنون السؤال سؤال استفهام واستخبار، فيُنطق الله جوارحهم بالشهادة عليهم، فروي عن النبي ﷺ -فيما أخرجه ابن جرير عن عقبة- «إن أول ما ينطق عن الإنسان فخذه اليسرى، ثم تنطق الجوارح، فيقول الكافر: تباً لكِ أيتها الأعضاء، فعنك كنت أدافع».

فيتعجب الناس من نطق جوارحهم، فيقولون على جهة اللوم لجلودهم حين شهدوا عليهم: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ فقالوا: أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء من مخلوقاته، فإنه كما أنطق الألسن في الدنيا، فكذلك أنطق بقية الأعضاء في الآخرة، علماً بأن الله أيها البشر خلقكم في المرة الأولى، وهو قادر على إعادتكم وإرجاعكم إليه، فإليه وحده المصير بعد الموت.

ثم تقول الملائكة بأمر الله سبحانه: لَمْ تكونوا تتصاونون وتحجزون أنفسكم عن المعاصي والكفر، خوف أن يشهد عليكم، أو لأجل أن يُشْهَد، من قِبَل سمعكم وأبصاركم وجلودكم، ولكنكم ظننتم ظناً خطأ أن الله تعالى حال عصيانكم، لا يعلم كثيراً مما تعلمون من المعاصي، فتجرأتم على فعلها.

وسبب نزول هذه الآية: هو ما رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي عن ابن

مسعود قال: كنت مستتراً بأستار الكعبة، فجاء ثلاثة نفر... فتكلموا بكلام، واختلفوا هل يسمع الله كلامهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ﴾ الآية.

ثم خاطب الله نبيه محمداً ﷺ بما معناه: فإن يصبر أعداء الله، لم ينفعهم الصبر، وإن لم يصبروا، فهم في النار في الحالين، وإن يطلب منهم العتبى، وتسويغ أعمالهم، وإبداء أعذارهم، فليسوا ممن يقبل عذرهم، لأنهم فارقوا الدنيا التي هي دار التكليف والطاعة والعمل.

ثم أبان الله سبب بقائهم في الكفر بعد إدمانهم عليه: وهو أن الله سلَّط وهيأ لهم شياطين الجن والإنس وهم القرناء، فحسَّنوا لهم أعمالهم في الماضي والمستقبل، وزيَّنوا لهم أحوال الدنيا التي بين أيديهم وهي كل ما تقدمهم في الزمن، وأمور الآخرة التي هي خلفهم، وهي معتقدات السوء وكل ما يأتي بعدهم من أمر القيامة والبعث، ونحو ذلك مما يقال فيه: «إنه خلف الإنسان» والمراد أمامه. وثبت عليهم العذاب في جملة أمم كافرة مضت قبلهم، مع جملة من الجن والإنس فعلوا كفعلهم، فوجب لهم العذاب نفسه، وكانوا جميعاً متساوين في الخسارة والدمار بسبب تكذيبهم وسوء أفعالهم.

جزاء أهل الكفر
أو التشويش عند سماع القرآن وجزاؤه

تعددت مواقف المشركين المكيين من معاداة النبي ﷺ، وصد الناس عن دعوته، وبخاصة عند سماع القرآن الكريم.

فاتفقوا على التشويش الشديد عند سماع آيات القرآن لصرف الناس عنه، فقال

بعض قريش كأبي جهل وغيره، خشية استمالة القلوب بالقرآن: متى قرأ محمد فلْنُغَطِّ نحن بالمكاء[١] والصفير والصياح وإنشاد الشِّعر والأرجاز، حتى يخفى صوته، ولا يقع الاستماع منه، وهذا الفعل منهم هو اللَّغو، فنزلت الآيات الآتية:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ[٢] لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ[٣] ﴿٢٩﴾﴾ [فصلت: ٤١/٢٦-٢٩].

المعنى: قال بعض الكفار لبعضهم: لا تستمعوا لهذا القرآن عند تلاوته، ولا تتأثروا أو تنقادوا له، وعارضوه بالكلام اللغو الساقط الذي لا معنى له، من إنشاد الأشعار ورفع الأصوات والتصفيق والتصفير، والتخليط بالخرافات والأساطير، حتى تغلبوا القارئ على قراءته، وتطمسوا أمر محمد ﷺ وتُميتوا ذِكْره وتصرفوا القلوب عنه.

فهددهم الله تعالى بأنه ليجازين في الدنيا في بدر وغيرها جميع الكفار بعذاب شديد، ومنهم كفار قريش، الذين يحاولون صد الناس عن سماع القرآن، ثم يجازينّهم في الآخرة جزاء أقبح أعمالهم التي عملوها في الدنيا، وهو الشرك. وهذه آية وعيد لقريش. والعذاب الشديد: هو عذاب الدنيا في بدر وغيرها والجزاء بأسوأ أعمالهم: هو عذاب الآخرة.

ثم ذكر الله تعالى صفة ذلك العذاب بأن ذلك الجزاء لأقبح أعمال الكفار وهو دخول النار، هو جزاء أعداء الله الذين كذبوا رسله، واستكبروا عن عبادته، فهم

---

(١) المكاء: الصفير، والخبر أخرجه ابن جرير عن مجاهد. (٢) اثتوا باللغو عند قراءته، وهو ما لا معنى فيه من سِقْط القول. (٣) أي الأذلين المهانين.

أهل النار، وهي دار الإقامة المستمرة التي لا انقطاع لها، ويجزون ذلك الجزاء بسبب جحودهم كون القرآن من عند الله تعالى. إنهم سيرون عظيم ما حلّ بهم وسوء منقلبهم، وحين يرون العذاب، يطلبون الانتقام ممن أضلوهم وأبعدوهم عن الطريق القويم.

فقال الكفار طالبين من الله تعالى: ربّنا أرنا من أضلنا من فريقي الجن والإنس، الذين كانوا يزينون لنا الكفر والمعاصي، لندوسهم بأقدامنا أو أرجلنا، ليكون الفريقان من الأذلين المهانين، في الدرك الأسفل من النار. والطلب لكلا نوعي المضلين، سواء الذين أضلوا الناس، وأدى بهم الكفر إلى الخلود في النار، أو الذين أوقعوا الناس في المعاصي الكبائر. وكل كافر يطلب إبليس، وكل مرتكب كبيرة يطلبه أيضاً ويطلب أعوانه من الإنس. وقولهم: ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ يراد به: في أسفل طبقة في النار، وهي أشد عذاباً، وهي دَرْك المنافقين.

إن من يحذِّره القرآن بهذا التحذير الذي يملأ النفس رعباً وهَلَعاً، وكان عنده قليل من عقل أو وعي أو تأمل، يبادر إلى البحث عن طريق الإنقاذ، كحال من يتعرض لخطر مشاهد في الدنيا من حريق، أو غرق، أو هدم، أو زلزال أو بركان، إن كل إنسان يبحث عن طريق النجاة، خوفاً من الخطر، وهذا في الدنيا، فكيف بأهوال العذاب الخالد (الدائم) في نيران الجحيم يوم القيامة.

إن الإنسانية التي تريد النجاة الدائمة والحفاظ على وجودها لا يمكنها تحقيق آمالها، وتجنب آلامها ومخاطر المستقبل، إلا بالإصغاء التام لنداءات القرآن العظيم وتوجيهاته ومواعظه السديدة وإرشاداته البليغة، وحين يستجيب الإنسان لهذا النداء الإلهي تصبح الحياة جنة في الدنيا، ويتخلص الجميع من الآلام وألوان الشقاء والعذاب الذي يتعرضون له، فهل من واعٍ أو مدرك لهذا؟!

جزاء أهل الاستقامة

الاستقامة على منهاج الحق والخير وطاعة الله تعالى. دليل على توافر العقل والوعي. والرجولة والشجاعة والعزة والكرامة، والانحرافُ عن ذلك المنهاج أمارة واضحة على الجهالة وقلة الوعي وضعف الإدراك، والجُبْن والمهانة، والانصياع للذَّات والأهواء والشهوات، فما استقام أحد إلا نجا وأفلح، وكان متماسك الشخصية، قوي العزيمة والإرادة، وما ضل أحد إلا هلك ودمَّر نفسه، وكان خائر العزيمة، ضعيف الإرادة. لذا كان الدين سبيلاً لخير الإنسان، وإبعاده عن الشرور والآثام، فجاء القرآن الكريم يحضّ على الاستقامة، ويعد بالجزاء الأحسن في هذه الآيات الآتية:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ٣٠-٣٢].

قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وذلك أن المشركين قالوا: ربنا الله، والملائكة بناته، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله، فلم يستقيموا، وقال أبو بكر: ربنا الله وحده لا شريك له، ومحمد ﷺ عبده ورسوله، فاستقام. وأخرج الترمذي والنسائي والبزار وغيرهم عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ قال: «قد قال الناس، ثم كفر أكثرهم، فمن مات عليها، فهو ممن استقام».

هذه الآية واردة إذن في أحوال المؤمنين المستقيمين ونهايتهم، بعد بيان أحوال المشركين ونهايتهم، ليتبين الفرق بين المؤمن والكافر، وبين الطيب والخبيث، وهي وعد للمؤمنين، بعد آيات وعيد المشركين.

فالذين أقروا بربوبية الله تعالى وتوحيده، وأنه الإله الواحد الذي لا شريك له، وواظبوا على مقتضى التوحيد، واستقاموا وثبتوا على أمر الله تعالى، فأطاعوه وتجنبوا معاصيه، حتى ماتوا، تنزل عليهم الملائكة تبشرهم بالنجاة في أماكن ثلاثة: عند الموت، وفي القبر، وعند البعث، وتزيل مخاوفهم من أمور الآخرة، وتذهب عنهم الحزن عما فاتهم من أمور الدنيا من خيرات الأهل والأموال والأولاد، وتبشرهم بجنان الخلد التي وُعدوا بها في الدنيا، على ألسنة الرسل، فإنهم واصلون إليها، خالدون في نعيمها، وأول درجات الاستقامة: أمن الخلود في النار بالنطق بالشهادتين، أخرج الإمام أحمد وأبو داود والحاكم عن معاذ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله دخل الجنة».

وطريق الاستقامة: أداء الطاعات، واجتناب المعاصي، تلا عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الآية وهو على المنبر، ثم قال: استقاموا -والله- لله تعالى بطاعته، ولم يروغوا روغان الثعالب. وقال سفيان بن عبد الله الثقفي -فيما رواه أحمد ومسلم والبخاري في تاريخه وغيرهم -: قلت للنبي ﷺ: أخبرني بأمر أعتصم به، فقال: قل: ربي الله، ثم استقم، قلت: ما أخوف ما تخاف علي؟ فأخذ رسول الله ﷺ بلسان نفسه، وقال: هذا. أي اللسان، فهو أخوف شيء على الإنسان، يورده المخاطر والمزالق، ويُردي به إلى النار.

وتقول الملائكة للمؤمنين: نحن المتولون لحفظكم ومعونتكم في أمور الدنيا والآخرة، نؤنسكم من وحشة القبور، وعند نفخة الصور، ونؤمّنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، الذي هو جسر دقيق بين الجنة والنار، ونوصلكم إلى جنات النعيم. قال السدي: معنى الآية: نحن -أي الملائكة- حفظتكم في الدنيا، وأولياؤكم في الآخرة.

وأما ألوان نعيم الجنة: فهو ما أخبرت به الملائكة بقولهم: ولكم في الجنة من جميع ما تختارونه، من صنوف اللذات، وأنواع الطيبات، ومهما طلبتم وجدتم، وكل ما تتمنون حصلتم عليه، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي لكم في الجنة ما تطلبون. وكل ذلك حال كونه معدّاً لكم، ضيافةً وعطاء وإنعاماً، من رب غفور لذنوبكم، رحيم شامل الرحمة بأحوالكم، حيث غفر وستر، ورحم ولطف.

ومعنى قوله تعالى: ﴿نُزُلًا﴾: أنزلناه نُزُلاً، فهو منصوب على المصدر. أي إن الله تعالى أعد هذا النعيم وأنزله إنزالاً على أهل الجنان، فهو جزاء على طاعتهم واستقامتهم. وإعداد هذه النزل دليل على تحقيق السعادة لهم، كما جاء في آية أخرى: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/٥٦]. أي يوم الجزاء.

فضل الدعوة إلى الله تعالى

تبليغ الدعوة إلى توحيد الله وطاعته: واجب في الإسلام، والإرشاد إلى الخير والسلامة والأمان: منهاج أهل الحق، المحبين للإنسانية، السالكين مع غيرهم ما يحبونه لأنفسهم، فإن أهل الإيمان يصلحون أنفسهم أولاً، ثم يحاولون إصلاح غيرهم، وتكون مرتبة تربية النفس وإعدادها معروفة من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ ثم تأتي مرتبة دعوة الآخرين إلى الهدى والخير، ويؤخذ ذلك من هذه الآيات الآتية:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا

يَنزَغَنَّكَ[1] مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ [فصلت: ٤١/ ٣٣-٣٦].

أوضح ابن عباس سبب نزول هذه الآية، فقال: هو رسول الله ﷺ، دعا إلى الإسلام، وعمل صالحاً فيما بينه وبين ربه، وجعل الإسلام نِحْلة. وقال أيضاً: هم أصحاب رسول الله ﷺ. والمؤذنون هم أيضاً داخلون في هذه الآية. لأنهم يدعون إلى الله وأداء الصلاة، ولكن ليست الآية نازلة في المؤذنين، خلافاً لما روي عن عائشة وعكرمة ومجاهد وقيس بن أبي حازم، لأن سورة (فصلت) مكية بلا خلاف، ولم يكن بمكة أذان، وإنما شرع الأذان بالمدينة، لكن الأذان من الدعوة إلى الله تعالى.

والآية تعم بلفظها كل من دعا قديماً وحديثاً إلى الله تعالى وإلى طاعته، من الأنبياء عليهم السلام، ومن المؤمنين. والمعنى: لا أحد أحسن ممن هذه حاله. إن أحسن الناس حالاً: هم الدعاة إلى توحيد الله تعالى وطاعته وعبادته، وإلى العمل الصالح: وهو أداء ما فرض الله على الإنسان واجتناب ما حرمه، والذين يتخذون الإسلام ديناً ومنهجاً ومذهباً، ويعمل كل واحد مع إخوته المسلمين على كل ما يشد أواصر الأخوة والتعاون والتناصر معهم.

ومن المعلوم بداهة أنه لا تساوي بين الفعلة الحسنة التي يرضى الله بها ويثيب عليها، وبين الفعلة السيئة التي يكرهها الله ويعاقب عليها. والمداراة: من الحسنة، والغلظة: من السيئة، فادفع أيها الداعية المخلص من أساء إليك بالإحسان إليه، بواسطة الكلام الطيب ومقابلة الإساءة بالإحسان، والذنب بالعفو، والغضب بالصبر والحلم، وادفع أمورك وما يعرض لك مع الناس، ومخالطتك لهم بالفعلة أو بالسيرة التي هي أحسن الفعلات والسير، ومنها: بذل أو إفشاء السلام، وحسن

(١) أي يصرفنك عن الخصلة الفاضلة صارف، فاستعذ بالله من وساوس الشيطان.

الأدب، وكظم الغيظ، والسماحة في القضاء والاقتضاء، وغير ذلك. وهذه آية جمعت مكارم الأخلاق، وأنواع الحِلْم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا فعل المؤمن هذه الفضائل، عصمه الله تعالى من الشيطان، وخضع له عدوه، ولا شك أن السلام: هو مبدأ الدفع بالتي هي أحسن. فإذا كان بينك وبين غيرك عداوة، فقابلت الإساءة بالإحسان، صار العدو كالصديق.

وما يتقبل هذه الوصية أو الموعظة ويعمل بها، ويروِّض نفسه على هذه الخصلة: وهي دفع السيئة بالحسنة إلا الذين صبروا على كظم الغيظ، واحتمال المكروه، والصبر شاق على النفوس، والصبر على الطاعات وعن الشهوات جامع لخصال الخير كلها. وكذلك لا يتقبل هذه الوصية إلا ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة، وذو حظ في الثواب والخير، والآية مدح للصابرين ووعد لهم بالجنة.

وطريق التغلب على أهواء النفس ونزواتها هو الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، فإن وسوس إليك الشيطان، وحاول صرفك عن الدفع بالتي هي أحسن، وزيّن لك أن تقابل السيئة بمثلها، فاستعذ بالله من شره، والتجئ إلى الله لكفّه عنك ورد كيده، فالله هو السميع لاستعاذتك منه، والتجائك إليه، العليم بوساوس الشيطان، وبما يعزم عليه الإنسان.

وقد كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة يقول -فيما رواه أحمد والترمذي- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من هَمْزه ونَفْخه ونَفْثه». ولما انتصر أبو بكر لنفسه من رجل شتمه، قام النبي ﷺ من المجلس وقال لأبي بكر: «إنه أي (حين سكوتك) كان يرد عنك مَلَك، فلما قَرُبتَ تنتصر، ذهب المَلَك، وجاء الشيطان، فما كنتُ لأجالسه».

بعض الآيات الكونية الدالة على قدرة الله

تكرر إيراد الآيات الكونية الدالة على وحدانية الله وقدرته وعظمة خلقه، في آيات متنوعة من القرآن الكريم، لإقناع المشركين بعقيدة الحق والتوحيد والعدل الإلهي، ويمكن لكل إنسان واعٍ إدراك هذه الظواهر الحسية، والاقتناع بدلالاتها وما تومئ إليه، فلا يبقى بعدئذ عذر لأحد في إنكار وجود الله تعالى وتوحيده، وقدرته التي لا تضارع، ولا يرقى لمثيلها إنسان. وهذا ما وجهت إليه الآيات الشريفة:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ[1] ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ[2] ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ٣٧-٣٩].

تضمنت الآيات الكريمة دلائل أربعة فلكية: وهي الليل والنهار والشمس والقمر، وآية أرضية: وهي إنبات النباتات بالأمطار والأنهار، لإثبات قدرة الله تعالى على إبداع الأشياء وخلقها، وعلى إحياء الموتى مرة أخرى، في عالم الآخرة والبعث.

إن من آيات الله تعالى ودلائل قدرته وعظمته: إيجادَ الليل والنهار، وتعاقبَهما، وخلق الشمس المضيئة والقمر المنير، ففي ذلك خير للإنسان ونفعه، وتمكينُه من الحياة البشرية بنحو مريح ومفيد، وبما أن الشمس والقمر مخلوقان خاضعان لسلطان الله وتسخيره، فإياكم أيها البشر من السجود للشمس والقمر وعبادتهما، لأنهما مخلوقان لله، وكل مخلوق عاجز عن فعل شيء، والأولى عبادة الخالق جل جلاله، إن

(١) أي لا يملون عبادته. (٢) انتفخت وعلت بالنبات أو الزرع.

كنتم تريدون عبادة الله، فعبادة الله وحده: هي الواجبة والصحيحة والنافعة، وعبادة من دونه من المخلوقات الكونية: هي باطلة كل البطلان، ولا تفيد شيئاً. وهذا ردّ على الصابئة عبدة الكواكب، وعلى عبدة الشمس الذين يزعمون أنهم يريدون من السجود للشمس والقمر السجود لله تعالى. ويلاحظ أن ذكر الليل والنهار يتضمن ما فيهما من طول وقصر، وتداخل واستواء وتفاوت، وذكر القمر والشمس يتضمن ما فيهما من عجائب وحكمة ونفع؟ فإن تكبر هؤلاء المشركون عبدة الكواكب عن امتثال أوامر الله تعالى وتوجيه رسوله، وأبوا إلا البقاء على شركهم، فلا يهمنك أمرهم أيها الرسول، فإن الذين يعبدون الله بحق كثيرون، فمنهم الملائكة الأشراف ذوو المكانة عند الله، لا المكان أو الموضع، الذين يواظبون على عبادة الله، وتنزيهه في كل وقت، ليلاً ونهاراً، وهم لا يملّون من عبادة الله سبحانه، ولا ينقطعون عن متابعة العبادة، وكلمة ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ ليست ظرف مكان، وإنما هي بيان المنزلة والقربة.

إن هذه الآية تتضمن وعيد المشركين وحقارة أمرهم، وأن الله تعالى غير محتاج إلى عبادتهم، فأولى بهم إعادة النظر في صرف جهودهم في شيء لا طائل معه ولا نفع، وإنما هو سبب عذاب وغضب وسخط من الله تعالى.

ثم ذكر الله تعالى دلائل أخرى من الأرض وما فيها من أسرار على وجوده وقدرته ووحدانيته، ومن هذه الدلائل: أنك أيها الناظر ترى الأرض هامدة جامدة، لا نبات فيها ولا حياة، فإذا أنزل الله عليها المطر، تحركت بالنبات، وانتفخت وعلت، وأخرجت مختلف ألوان الزروع والحبوب والثمار، وفيها مع ذلك خزائن الثروة المعدنية، النفطية السائلة، والجامدة من معادن الذهب والفضة والحديد والنحاس والفوسفات وغيرها.

إن الذي أحيا هذه الأرض الجدبة بالنبات والزرع، قادر على أن يحيي الأموات،

أي إن الذي ينبغي أن يقاس على هذه الآية في مجال إيجاد الأحياء النباتية، إنما هو إحياء الموتى، فإن الله هو الرب القدير الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. والشيء في اللغة: هو الموجود. وهذا دليل حسي مشاهد، نبّه عليه القرآن الكريم للتوصل إلى الإيمان بقدرة الله على البعث والإحياء بعد الإماتة، والركود في القبور، وإن الذي يجب الانتباه له: هو قدرة الله تعالى الخالق، في ابتداء الخلق، وإعادته وانتهائه، وفي كل وقت وحال.

وبعد هذا البيان الإلهي لا يبقى عذر لأحد في خطأ الاعتقاد، وعبادة غير الله سبحانه، والتماس الخير والنفع من غير الله القادر، أو منع الضرر والشر من عبيد الله ومخلوقاته. ألا إنها عظة وذكرى لمن كان له قلب وعقل ووعي، وألقى السمع وتنبه، وهو شهيد، أي صرف سمعه إلى هذه الأنباء الواعظة وانتبه في سماعها.

الميل والإعراض عن القرآن

عجيب أمر الإنسان، يرى الحق ويشاهده، ويلمس فائدة الاستقامة وجدواها، وطريق النجاة والسلامة، ومع ذلك يعرض عنه، ويميل إلى غيره من ألوان الباطل والانحراف، متأثراً بأهوائه وشهواته، مؤثراً نفعاً عاجلاً في ظنه، ولكنه في الواقع هو عين الهلاك والضياع. وما مثله إلا كمثل المريض الأحمق، ينصحه الطبيب بتناول دواء معين، فيتركه ويهمله، إلى أن يلقى حتفه ونهايته، وهكذا بعض الناس يلحدون في القرآن، أي يميلون عنه وعن توجيهاته، وهو الحق الأبلج، والصواب الأسدّ، ويتجهون إلى غيره، وهو الباطل اللجلج، والخطأ البين. وهذا ما أبانته الآيات الآتية:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا[1] لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ[2] لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ٤٠-٤٣].

هذا تهديد لأولئك الضالين الذي يهجرون القرآن العظيم، أي يتركون الحق إلى غيره، ويميلون عن الاستقامة على منهج آيات القرآن بالطعن فيها وتحريفها، وتأويلها تأويلاً باطلاً، لاغين عند سماعها، إنهم لا يخفون على الله، وإنما يعلم بهم وسيجازيهم أشد الجزاء.

وهل أدرك هؤلاء هذا المصير، وهل غفلوا عن الفرق الشاسع بين المؤمن المستقر الآمن في الدنيا والآخرة، وبين الكافر الجبار المتكبر في الدنيا، والذي يُلْقى به في الآخرة في دركات النار؟ فالمؤمن يدخل الجنة، ويطمئن لما فيها من خيرات، والكافر يزجّ به في نيران جهنم، فيبقى في عذابها على الدوام، لا يقول عاقل بالتسوية بين الحالين أو الفريقين. ثم أكد الله التهديد والوعيد بقوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ أي اعملوا أيها الضالون المكذبون ما شئتم من الأعمال، فإن الله عالم بكم، وبصير بأعمالكم، ومجازيكم بحسب ما قدمتم من أعمال، خيرها وشرها، وقوله تعالى: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ معناه: فنحن بالمرصاد لهم وسنعذبهم، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ دليل الوعيد والتهديد.

قال مقاتل: نزلت هذه في أبي جهل، وفي عثمان بن عفان رضي الله عنه. وقيل:

(١) أي يميلون عن الحق والاستقامة. (٢) أي القرآن.

في عمار بن ياسر رضي الله عنه. قال بشير بن فتح فيما أخرجه ابن المنذر: نزلت هذه الآية في أبي جهل وعمار بن ياسر.

والمفاضلة بين الإلقاء في النار والأمن يوم القيامة في كلمة (خير)، وإن كانا لا يشتركان في صفة الخير، إنما هي بسبب كون الكلام تقريراً نهائياً بسوء مصير الكافرين، لا مجرد خبر وحكاية. وذلك مثل آية: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢٤]. لأن المقرِّر قد يقرر خصمه على قسمين: أحدهما بيِّن الفساد، حتى يرى جوابه، فإذا اختار طريق الفساد، بانَ جهله وغباؤه.

وتابع القرآن التهديد وتأكيد الجزاء، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي إن الذين كفروا بالقرآن الكريم ذي الذكر العالي والشرف الرفيع، لما جاءهم، نجازيهم على كفرهم، والحال أن القرآن متصف بصفات ثلاث: أولها: أنه كتاب عزيز عن المعارضة أو الطعن، منيع عن كل عيب من أي بشر، وثانيهما أنه لا يتمكن أحد من إبطاله وتحريفه، وليس لأحد أن يبطله من جميع جوانبه، لا في اللفظ ولا في المعنى، ولا في الحكم والأسلوب، ولا في الغرض أو القصة، فلا يكذبه كتاب سابق قبله، ولا فكر أو نظر لاحق بعده، محفوظ من النقص والزيادة، كما في آية أخرى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٩].

وثالث الصفات: أنه تنزيل من إله حكيم في قوله وفعله، محمود في جميع أوامره ونواهيه، مشكور على نعمه وأفضاله، فكيف يأتيه الباطل بأي صورة أو باب؟!

ثم أبان الله لرسوله وحدةَ الرسالات، وأنها تهدف إلى التوحيد الخالص، وإثبات الآخرة، وتقرير مبدأ الثواب والعقاب، مبيناً أن ما يقال لك أيها الرسول من هؤلاء الكفار المشركين من وصفك بالسحر والجنون والكذب، وما ينالك من مكروه، ماهو إلا كأقوال الجاحدين لأنبيائهم ورسلهم، الذين تقدموك، فإن أقوامهم كانوا يقولون

لهم مثلما يقول لك هؤلاء، من الأقوال الجارحة المؤلمة، فامض لأمر الله تعالى، ولا يهمك شأنهم، وربك بالمرصاد، فهو غفار ستّار لمن تاب إليه وآمن به إيماناً صحيحاً، ومعاقب بعقاب مؤلم شديد لمن استمر على كفره، ومات على ضلاله كافراً لم يتب. قال ابن عطية: وفي هذه الكلمات الموجزات جُمَّاع الزجر والنهي والموعظة، وإليها يرجع كل نظر.

القرآن العربي شفاء وهدى

أكد الله تعالى على أن القرآن الكريم كله عربي اللسان، فصيح البيان، ليس مختلطاً بين العربية والأعجمية، ليؤدي مهمته على أكمل وجه، فهو هداية للحيارى، وشفاء لما في الصدور، مما قد يكون فيها من وساوس وشبهات وضلالات، وليس محلاً للخلاف أو الاختلاف، وهكذا شأن جميع الكتب السماوية، فهذا كتاب موسى- التوراة نزل وحدة متناسقة، ومع ذلك وقع الاختلاف فيه وفي القرآن، من قِبَل المكذبين بهما وهم اليهود وغير المؤمنين، ولكن وبال التكذيب على أصحابه، والإنسان ولي نفسه، فمن آمن وعمل صالح الأعمال حقق الفوز والنجاة لنفسه، ومن أساء الاعتقاد والعمل، أتى بالضرر على نفسه، وليس الله تعالى بظلام لأحد، وهذا ما أبانته الآيات القرآنية الآتية:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ(١) وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى(٢) ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ

(١) أي ثقل في السمع وصمم عن الحقيقة مانع من السمع، وهذا مجاز، فإنهم بتركهم فهم القرآن كانوا كالطرشان. (٢) أي معمى، وهذا أيضاً مجاز، فإنهم لما لم يفهموا القرآن، لتعاميهم عن آياته، جعلوا كالعميان.

مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ[1] ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ [فصلت: ٤١/ ٤٤-٤٦].

هذه الآية الكريمة نزلت بسبب تخليط قريش في أقوالهم، من أجل الحروف المعرَّبة في القرآن من كلام العجم، كالسِّجين والاستبرق ونحوه، فقال الله عز وجل: ولو جعلنا هذا القرآن أعجمياً (أي كلاماً لا يبين ولا يفهم ولا يفصح) لقالوا واعترضوا: لولا بُيِّنت آياته بلغتنا حتى نفهمها.

وهذا غير صحيح، فهل يصح أن يكون هذا القرآن العربي بعضه عربياً، وبعضه أعجمياً؟ هذا لا يحسن، وإنما المقصود الدلالة على أن مشركي قريش قوم متعنتون، محاربون للقرآن، بأي لغة أو صفة كان عليها. والواقع أن جميع ما في القرآن عربي، إذا أرادوا الفهم والإفادة منه، ولو نزل بلغة أعجمية لأنكروا ذلك، وغاية القرآن: أن تقول أيها الرسول لقومك المشركين: إنه هداية من الظلمات إلى النور لقلب من آمن به، وشفاء لما في الصدور من الشكوك والرِّيَب، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨٢].

وبعبارة أخرى: أمر الله تعالى نبيه أن يقول لهم: إن هذا القرآن هدى وشفاء للمؤمنين المبصرين للحقائق، وإنه عمىً على الذين لا يصدقون بالله ورسوله، ولا يقلّبون أنظارهم في مصنوعات الخالق، أي إنه معمّىً عليهم، فعلى أعينهم غشاوة، وفي آذانهم صمم أو ثقل في السمع، وعلى قلوبهم أقفال، وهذا من قبيل المجاز المراد به أنهم لا يفهمون ما في القرآن، كالعميان والطرشان، ولا يهتدون إلى ما فيه من البيان ولا يبصرون ما اشتمل عليه من البراهين والمواعظ، لتعطيلهم سبل المعرفة والإدراك.

ثم أكد الله تعالى على عدم استعدادهم لفهم القرآن، فإن حالهم كحال من يُنَادى

(١) شديد الريبة أو الشك، موقع في الاضطراب.

من مسافة بعيدة، يسمع صوت من يناديه منها، ولا يفهم ما يقال له. وهذا أيضاً استعارة، لقلة فهمهم، حيث شبَّههم بالرجل، يُنَادى من مكان بعيد، يُسمع منه الصوت، ولا تفهم تفاصيله ولا معانيه.

وهذا شأن مستمر بين الأمم المكذبة، فلا تستغرب أيها الرسول موقف قومك، فتلك عادة قديمة للأمم مع الرسل، فإنهم يختلفون في الكتب المنزلة عليهم، كما حدث من بني إسرائيل، فلقد أرسل الله موسى عليه السلام وآتاه التوراة، فاختلفوا في كتابهم بين مصدِّق ومكذِّب، وشأنك أيها الرسول مع قريش، كشأن موسى مع بني إسرائيل، حين جاءهم بالتوراة، ولقد أخّر الله العذاب على الفريقين، ولولا الكلمة السابقة (وهي أن الله حتَّم تأخير عذابهم إلى يوم القيامة) لقضي بينهم، أي لعُجِّل لهم العذاب، كما فُعل بالأمم المكذبة السابقة، وسبب الهلاك قائم فيهم، فإن كفار قريش لفي شك من القرآن، موقع في الريبة والقلق، ولم يكن تكذيبهم للقرآن ناجماً عن تبصر وتأمل، بل كانوا شاكّين فيه وفيما قالوا، غير متحققين لشيء كانوا فيه.

وقانون الجزاء الإلهي واضح، فمن عمل صالح الأعمال بأداء الفرائض واجتناب المعاصي، فإنما ينفع نفسه، ويجازى بخير عمله، ومن أساء فعصى الله تعالى، فإنما يرجع وبال ذلك عليه، ويعاقب بسوء عمله، والجزاء للفريقين قائم على أساس من الحق والعدل المطلق، فلا يُنقص المحسن شيئاً من ثوابه، ولا يعاقب أحد إلا بذنبه أو معصيته.

العلم بالساعة وطبيعة الإنسان

هناك أمر خطير جداً، مرتقب لا شك فيه: وهو يوم القيامة، ولكن حكمة الله تعالى اقتضت تجهيله، فلا يعلم به أحد من المخلوقات، واختص الله تعالى وحده بعلم الساعة، كما اختص بالعلم بالأحداث المستقبلة، ليظل الإنسان رقيباً على نفسه،

مهيمناً على شهواته، يعمل الخير حباً فيه، ويبتعد عن الشر كرهاً فيه لذاته، وطبع الإنسان غريب، لا يمل من طلب الخير، ويأس ويقنط من رحمة الله إن أصابه شر. وفي حال النعمة والترف يبتعد عن الله تعالى الذي أمده بالنعم، ويهمل شكر ربه المنعم، ويزعم أن له المكان الحسن عند الله في الآخرة، وإذا أصابه الشر، أقبل على الدعاء، والتضرع لله سبحانه، وإذا تعرض لخير نسي الله ونأى عنه، فهو دائم الطمع، كثير التبدل والتغير، لا يستقر على حال، ولا يثبت على مبدأ، ولا وفاء عنده لمعروف، قال الله تعالى مبيناً ذلك كله:

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا[1] وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ[2] مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ[3] ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ[4] ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ[5] ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ[6] ﴿٥١﴾﴾ [فصلت: ٤١/٤٧-٥١].

المعنى: إن علم وقت القيامة ومجيئها، يردُّه كل مؤمن متكلِّم فيه إلى الله عز وجل، لذا كان جواب النبي ﷺ لجبريل عليه السلام، في الحديث الصحيح المتفق عليه، عن عمر رضي الله عنه: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل». وفي حديث آخر ثابت: «مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: (إن الله عنده علم الساعة..)». الحديث، وهو وارد في آية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣١/٢٤].

---

(١) أي أوعيتها. (٢) أخبرناك وأعلمناك. (٣) ليس منا أحد يشهد أو شهد بأن لله شريكاً. (٤) أي من مهرب من العذاب. (٥) أي شديد صعب. (٦) أي طويل.

وكذلك يعلم الله تعالى الثمار وخروجها من الأكمام (الأوعية) ووقت ظهورها تماماً، ويعلم ما تحمل الإناث ووقت الحمل والوضع، وذلك أورده الله على سبيل المثال لجميع الأشياء، إذ كل شيء خفي، فهو في حكم هذين الشيئين. وهذا كله مجهول، لا يعلم به أقرب الناس من هذه الأشياء كالمزارع والزوج أو الأنثى. وما قد يقال: إنما هو من محض التخمين، لا من باب العلم بيقين.

ثم رد الله تعالى على المشركين لإبطال شركهم، فاذكر أيها الرسول يوم ينادي الله تعالى المشركين، في يوم القيامة، قائلاً على سبيل التوبيخ والتهكم والتحدي: أين شركائي الذين كنتم تزعمون من الأصنام وغيرها، فادعوهم الآن للشفاعة بكم أو دفع العذاب عنكم؟ فيجيب هؤلاء المعبودون بغير حق: لقد أخبرناك وأعلمناك أن ليس أحد منا يشهد اليوم أن معك يا رب شريكاً، ونحن لا نشاهدهم أمامنا، بل ضلوا واختفوا عنا، وذهبت تلك المعبودات من الأصنام وغيرها محتجبة في آفاق الغيبة عن العيون، وقد كانوا يعبدونهم في الدنيا، وتيقنوا الآن ألا مهرب لهم ولا ملجأ من عذاب الله. وهذا وعيد وتهديد. وقد استعمل الظن هنا مكان اليقين: وهو كل موضع عُلم علماً قوياً وتقرر في النفس ولم يلتبس بشيء.

ثم نزلت الآيات الآتية في بعض كفار مكة، كالوليد بن المغيرة أو عتبة بن ربيعة، ومضمونها: أن أولها يتضمن خُلُقاً[1] ربما شارك فيها بعض المؤمنين: وهو أنه لا يمل الإنسان من طلب الخير من ربه، كالمال والصحة والرفعة ونحوها، وإن أصابه الشر من بلاء وشدة، أو فقر أو مرض، كان شديد اليأس والقنوط من رحمة الله، وهذه الصفة الأخيرة (اليأس) من صفة الكافر وحده، والصفة الأولى (طلب الخير في الدنيا) صفة مشتركة، فأما خير الآخرة فهو للمؤمنين.

---

(١) الخلق: مؤنثة، لأنها حال راسخة للنفس.

ثم ذكر الله تعالى ثلاث خصال أخرى للكافر أقبح مما قبلها: وهي أنه لئن آتاه الله الخير بتفريج كربه بعد شدة أصابته، كغنى بعد فقر، وصحة بعد مرض، وجاه بعد ذل، ليقولن: هذا شيء أستحقه على الله، لرضاه بعملي وجهدي، متناسياً فضل الله. والصفة الثانية: هي أنني لا أعتقد أن القيامة ستقوم، كما أخبر الرسل، فلا رجعة ولا حساب.

والصفة الثالثة: هي أنني إن أُعدت إلى ربي -على سبيل الافتراض- فليحسنن إليّ ربي كما أحسن لي في هذه الدنيا، والحسنى: الكرامة والجنة، فأجيب بمفاجأة نقيض ظنه: لنخبرن هؤلاء الكفار يوم القيامة بما عملوا من المعاصي، ولنجازينهم بعذاب شديد صعب. والعيش بالأمل أو الأماني مذموم لكل أحد تارك الطاعة، جاء في الحديث[1]: «الكيِّس: من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز: من أتبع نفسه هواها، وتمنّى على الله الأماني».

ثم ذكر الله تعالى خلقاً ذميماً للإنسان جملة، وهو واضح في الكفار؛ وهي أن الله تعالى إذا أنعم على الإنسان، أعرض عن الشكر والطاعة، واستكبر عن الانقياد لأوامر الله تعالى، وإذا تبدل الحال، وأصيب بشر، من بلاء وجهد، أو فقر أو مرض، أطال الدعاء والتضرع إلى الله تعالى، وهذا خلق ذميم يدل على العمل الانتهازي أو المصلحي المحض. وأما المؤمن في الغالب فإنه يشكر عند النعمة، ويصبر عند الشدة.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن شداد بن أوس رضي الله عنه.

الإعلام العام بآيات الله

إذا استبد الكفر والعناد ببعض الناس، لم يبق إلا أن يُقْهر على المعرفة، ويُتحدى بالمحسوسات المشاهدة الدالة على الحق، والتي تستأصل كل ريب أو شك في النفس إذا استجاب لهذا الإقناع، ولذا حمل القرآن الكريم على المشركين الذين أغلقوا على أنفسهم نافذة الوصول إلى الحق والخير والهداية، فاستحقوا التهديد والوعيد، وكشف الله باطلهم، وأبان حقيقة أمرهم، وهي أنهم قوم يشكون في الآخرة، وما فيها من ثواب وعقاب وحساب عسير. وهذا ما أوضحته الآيات الآتية:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ[1] ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ[2] ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ[3] مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ٥٢-٥٤].

أمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أن يقف قريشاً على هذه الحجة الدامغة، الصادرة من أنفسهم، فقل أيها الرسول: أرأيتم أي أخبروني إن كان هذا الشرع من عند الله وبأمره، ثم خالفتموه أنتم، ألستم على هَلَكة من الله تعالى؟ فلا أحد أضل ممن يبقى على هذه الحال من الغرور من الله، ومجافاة الحق، والوقوف في جانب المخالفة والمشاقّة، والمعاداة البعيدة المدى. وإن كان هذا القرآن من عند الله حقاً، ثم كذبتم به، ولم تقبلوه، أفلا تكونون أعداء للحق والصواب؟ بل في الواقع لا أحد أضل منكم لشدة عداوتكم، وإمعانكم في الكفر والعناد، ومعاداة الحق وأهله. فيكون الضمير في قوله تعالى ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ عائداً على الشرع والقرآن.

---

(١) أي لا أحد أضل ممن يبقى في خلاف كبير معاد للحق، بعد بيان دواعي الإيمان. (٢) أي شاهد على ما يفعله الناس وغيرهم. (٣) أي في شك خطير.

ثم وعد الله تعالى نبيه ﷺ بأنه سيُري الكفار آياته، وهذا يدعو إلى التأمل والتفكر في تلك الآيات، إننا سنظهر لهم دلالات صدق القرآن، وعلامات كونه من عند الله، في أقطار السماوات والأرض والبلاد، وإبداع الأشياء، وفي خلق أنفس البشر، حتى يتضح الحق لكل ذي عينين.

وللمفسرين ثلاثة اتجاهات في إراءة آيات الله تعالى في الآفاق، فقال المنهال بن عمرو، والسّدّي وجماعة: هو وعد بما يفتحه الله تعالى على رسوله من الأقطار حول مكة، وفي غير ذلك من الأرض كخيبر ونحوها. ويكون قوله ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أراد به فتح مكة. قال ابن عطية: هذا التأويل أرجح التأويلات.

وقال قتادة والضحاك ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ﴾: هو ما أصاب الأمم المكذبة في أقطار الأرض. ويكون قوله ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ يوم بدر.

وقال ابن زيد وعطاء: الآفاق: آفاق السماء، وأراد به الآيات في الشمس والقمر والرياح وغير ذلك. وقوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾: يراد به اعتبار الإنسان بجسمه وحواسّه، وغريب خلقته، ومراحل تكوينه في البطن ونحو ذلك.

وهذا المعنى الثالث: هو الظاهر لعمومه وانسجامه مع سياق الآيات، فيراد من إراءة الله تعالى آياته في الآفاق: إقناعهم بقدرته وعظمته، وإلزامهم بالحجة المحسوسة الملجمة لهم، ليتبين الحق، ويظهر لهم أن القرآن هو الحق القاطع. وقد أيدت وصدقت القرآن وإشاراته تلك النظرياتُ العلميةُ الصحيحة في المطر والسحاب، وغزو الفضاء، واكتشاف الكواكب وخزائن الأرض، وعجائب خلق الأجنة في الإناث، وغير ذلك من الآيات الدالة على كمال القدرة الإلهية، وتمام الحكمة، وعجائب مصنوعات الله، حتى يظهر أن دين الحق هو ما اشتمل عليه كتاب الحق: وهو القرآن العظيم.

وإذا لم يتأمل الناس ولا سيما العلماءُ بآفاق السماوات والأرض وأسرار الأنفس، كفى بالله شاهداً على أفعال عباده وأقوالهم، من الكفار وغيرهم، وكفى بالله شاهداً على صدق القرآن وأنه من عند الله.

ثم كشف الله تعالى سبب عناد المشركين: وهو أنهم في الواقع في شك خطير من أمر البعث والحساب، والثواب والعقاب، ولا قيمة لهذا الموقف المعادي، فإن الله تعالى أنذر وبشَّر، وأبلغ وأقنع، وأحاط علمه بجميع المعلومات، وشملت قدرته جميع المقدورات، والمخلوقات كلها تحت قدرته وفي قبضته، والأحداث جميعها في تصرفه وعلمه وتدبيره، فبإظهار الله تعالى شرعه ودينه في كل مكان، وفتح البلاد للنبي عليه الصلاة والسلام، يتبين لهم أنه الحق، وتُوِّج كل هذا بوعد الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أنه كافيه وناصره ومدبر أموره كلها، وفي هذا الوعد بإحاطة الله لكل شيء: وعيد للكفار أيضاً. وإحاطته تعالى: هي بالقدرة والسلطان، وقد تحقق الوعد والوعيد مع مرور الزمان.